الأسلوبية .. والبيان العربي

تأليف

دكتور محمد عبد المنعم خفاجي
دكتور محمد السعدي فرهود

دكتور عبد العزيز شرف

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

الطبعة الأولى

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

الدار المصرية اللبنانية طباعة • نشر • توزيع

١٦ شارع عبد الخالق ثروت- تليفون ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣- فاكس: ٣٩٠٩٦١٨- برقياً: دار شادو- ص.ب: ٢٠٢٢ - القاهرة

AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH PRINTING — PUBLI SHING — DISTRIBUTION

16 ABD EL KHALEK SARWAT St. P.O.Box 2022-Cairo-Egypt PHONE: 3936743-3923525 FAX: 3909618 CABLE DARSHADO

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

هذا الكتاب دراسة للأسلوبية والبيان العربى على ضوء جديد ، يجمع بين القديم والجديد ، وبين الأصالة والمعاصرة ، وبين التقليد والتجديد .

وليس من شك فى أن الأسلوبية المعاصرة لاتكاد تختلف فى كثير عن نظرية النظم العربية التى وضع أصولها الإمام عبد القاهر الجرجانى فى كتابه النفيس : « دلائل الإعجاز » ، وحين صاغ عبد القاهر آراءه فى النظم لم يكن يبعد عن فكرة اختلاف الأسلوب باختلاف ترتيب الكلام ، وجعل بعضه بسبب من بعض ، وكانت دراسات عبد القاهر فى التقديم والتأخير ، والذكر والحذف ، والتعريف والتنكير ، والإضمار والإظهار ، والقصر وعدمه ، والإيجاز والاطناب ، والتأكيد وعدمه ، وغير ذلك من وجوه المعانى ، وكذلك دراساته لأساليب الحقيقة والمجاز والتشبيه والتمثيل والاستعارة والكناية والتورية وحسن التعليل ، وغير ذلك من وجوه البيان والبديع ، كان ذلك كله عملا جديدا فى البلاغة العربية ، وتفصيلا واسعا للأسلوب وتحديدا قريبا من مفهوم الأسلوبية فى المذاهب الغربية الحديثة .

و لم يكن فكر عبد القاهر تقليدا لمذهب أو احتذاء لفكر الاخرين ، إنما كان تأصيلا جديدا لكل ما سبقه من أفكار البلاغيين والنقاد والأسلوبيين وكانت أحكامه البلاغية نتاجا لذوق أدبى مرهف ، صقله اطلاع واسع على الثقافات العربية وآدابها ، وقراءات عميقة فى شتى مصادر البيان العربى منذ عصر الجاحظ ومن تلاه من أمثال . ابن

قتيبة وابن المعتز وقدامة والآمدى وأبى الحسن الجرجانى صاحب الوساطة والباقلانى وغيرهم ..

ومن مذهب الجاحظ فى اللفظ والمعنى ، إلى مذهب البديع عند ابن المعتز ، إلى مذهب قدامة فى تحديد أصول النقد إلى مذهب الآمدى فى عمود الشعر ، إلى مذهب القاضى الجرجانى فى الاحتكام إلى القيم الفنية التراثية ، إلى مذهب الباقلانى فى تحديد أسباب إعجاز القرآن الكريم .

من كل ذلك وغيره من مذاهب النحويين واللغويين ، صاغ عبد القاهر فلسفته البلاغية . والتى تدور حول خصائص الأسلوب وبلاغته .

وحين سجل ابن سينا أفكار أرسطو فى الخطابة ، وفى الشعر فى كتابه الفلسفى الشهير « الشفاء » أفاد من ذلك الإمام عبد القاهر فائدة جُلّى فى كتابيه : أسرار البلاغة « ودلائل الإعجاز » كما يرى د . طه حسين فى مقدمته المشهورة لكتاب « نقد النثر »[1] ، يقول د . طه : « عندما نقرأ أولهما – يعنى كتاب « أسرار البلاغة » نكاد نجزم بأن المؤلف – عبد القاهر – قرأ الفصل الذى عقده ابن سينا للعبارة وأنه فكر فيه كثيرا ، وحاول أن يدرسه دراسة نقد وتمحيص ، والواقع أن تصور القدماء للمجاز مضطرب غير مستقيم ، فابتدأ يوضح مبهمه ويجلو غامضه ، وقسم المجاز ».. ويستمر الدكتور طه فى كلامة فيقول : « ولا يسع من يقرأ دلائل الإعجاز الا أن يعترف بفضل عبد القاهر وبما أنفق من جهد صادق فى التأليف بين قواعد النحو العربى وبين آراء أرسطو العامه فى الجملة والأسلوب[2] » .

وعبد القاهر لايفوته أن يرجع إلى كل ماكُتب حول البلاغة من كتب القدماء ، وبين الكتب المترجمة من اللغات الأخرى ، وهو بذلك يجتهد كل الاجتهاد فى البحث والتفكير والاستنتاج ، ومن ثم جاءت آراؤه غاية فى سلامة الذوق وسلامة التفكير .

وحين نرجع إلى علم المعانى . نجد أن دراساته قريبة إلى الأسلوبية قربا كبيرا ، فإذا جئنا إلى « التقديم والتأخير » مثلا ، نجد أن هذا الباب هو . بحث عن فهم

---

(١) ص ٢٨ مقدمة « نقد النثر » للدكتور طه حسين طبعة عام ١٩٣٩ – القاهرة .

(٢) ص ٣ مقدمة نقد النثر د . طه حسين .

عبد القاهر للصياغة الأسلوبية المتمثلة فى بلاغة الأسلوب ، وأسرارهذه البلاغة ، وكذلك يجىء عرضه للتشبيه والاستعارة والمجاز والكناية وبلاغتها ، فهو فى ذلك يقف عند صياغة الأسلوب ، ودلالة هذه الصياغة نفسها على المعنى .

إن عبد القاهر فى نظريته فى النظم . لايكاد يختلف عن مفهوم الأسلوبية ، وفن صياغة الأسلوب ، ودلالة هذه الصياغة على المعنى .

وقد تابع القدماء . أفكار عبد القاهر فى صياغة الأسلوب ، وقسموا البلاغة إلى ثلاثة فنون : المعانى ، والبيان ، والبديع وهم فى ذلك كله يبحثون مع عبد القاهر فى الأساليب والفروق بينها ، وبلاغة كل أسلوب وخصائصه ، إنهم متابعة لعبد القاهر إنما يبنون أحكامهم الأدبية على قاعدة قوية من خصائص الأسلوب وبلاغته .

فعبد القاهر بذلك يُعَدُّ أول باحث عن بلاغة الأسلوب ، وألوانه وخصائصه أوليس فى ذلك كله مايجعلنا نجزم جزما قاطعا . بأن بين الأسلوبية وفكر عبد القاهر الجرجانى فى النظم صلة قوية وعلى الصلة المباشرة بين الأسلوبية وخصائص البلاغة العربية .

من أجل ذلك كله كان هذا الكتاب الذى نبحث فيه عن خصائص الأسلوب والأسلوبية فى علوم البلاغة .

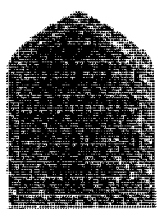
ونسأل الله المزيد من التوفيق ومن الصواب والسداد ، إنه أكرم مأمول ، وأجلّ مسئول ، وما توفيقنا إلا بالله .

***



الفصل الأول

الأسلوب والأسلوبية
فى ضوء النقد الحديث



منذ الخمسينات من هذا القرن ، أصبح مصطلح الأسلوبية Stylistics يطلق على منهج تحليلى للأعمال الأدبية ؛ يقترح استبدال « الذاتيه » و « الانطباعية » فى النقد التقليدى بتحليل « موضوعى » أو « علمى » للأسلوب فى النصوص الأدبية .

والأسلوب يعرف « وفق الطريقة التقليدية بالتمييز بين ما يقال فى النصّ الأدبى ؛ وكيف يقال ، أوبين « المحتوى » و « الشكل » . ويشار إلى المحتوى » عادة بالمصطلحات التالية : « المعلومات » أو الرسالة » Message أو « المعنى المطروح » ، بينما ينظر إلى الأسلوب على أنه تغييرات تطرأ على الطريقة التى تطرح من خلالها هذه المعلومات مما يؤثر على « طابعها الجمالى » أو على استجابة القارىء العاطفية » .

يقول « ابرامز » M .H .Ibrams فى معجم المصطلحات الأدبية A Glossary of Literary Terms : إن افكار علم اللغة الحديث تستخدم للكشف عن السمات الأسلوبية أو « الخصائص الشكلية » التى يقال إنها تميز عملا معينا ، أو كاتبا معينا ، أو موروثا أدبيا ، أو عصرا معينا ، وهذه السمات الأسلوبية قد تكون :

– صوتية : (الأنماط الصوتية للكلام ؛ أو الوزن أو القافية) أو

– جملية : (أنواع التركيب الجملي) أو

– معجمية : (الكلمات المجردة ضد الكلمات المحسوسة ، التكرار النسبى للاسماء والأفعال والصفات) أو

– بلاغية : (الاستعمال المتميز للمجاز ، والاستعارة ، والصور وما اليها)[١] .

وإذا كان مصطلح « الأسلوب » Le Style قد سبق مصطلح « الأسلوبية » La Stylistique إلى الوجود والانتشار فإن القواميس التاريخية فى اللغة الفرنسية مثلا «تصعد بالأول منهما إلى بداية القرن الخامس عشر ، وبالثانى منهما إلى بداية القرن العشرين»[٢] .

(١) م .هـ برامز : المدارس النقدية الحديثة ، ترجمة د . عبد الله معتصم الدباغ فى الثقافة الاجنبيه ٣ /١٩٨٧ ، ص ٥٥ .

(٢) د . أحمد درويش : الأسلوب والأسلوبية ، فى فصول ١ /٨٤ . G (ص٦٠ , le petit rebert . 1976 .pp. 1622 et 1700

وارتبط مصطلح الأسلوب فترة طويلة بمصطلح البلاغة **La Rhétorique** حيث ساعد على تصنيف القواعد المعيارية التى تحملها البلاغة إلى الفكر الأدبى والعالمى منذ عهد الحضارة الإغريقية ، وكتابات أرسطو . على نحو خاص ، واكتسبت كلمة « الأسلوب » شهرة التقسيم الثلاثى الذى استقر عليه بلاغيو العصور الوسطى ، حين ذهبوا إلى وجود ثلاثة ألوان من الأساليب . هى : الأسلوب البسيط ، والأسلوب المتوسط ، والأسلوب السامى ، وهى ألوان يمثلها عندهم ثلاثة نماذج كبرى فى انتاج الشاعر الرومانى « فرجيل » الذى عاش فى القرن الأول قبل الميلاد[١] .

وقد أفاض أرسطو . من قبل . فى أسلوب الخطابة ؛ وكثير مما قاله ينطبق على الخطابة والشعر معا . ولهذا . كثيرا ما يستشهد على ما يقول من الشعر . على أن أنواع المجاز قد ذكرها أرسطو فى كتابه « فن الشعر » ولكنه أطال فيها فى الخطابة ، وهو يحيل فى كل منهما على الآخر .

وللأسلوب صفات عامة يجب أن تتوافر له ، شعرا كان أم نثرا ، وهناك خصائص أخرى تفرق ما بين أسلوب الشعر وأسلوب النثر ، ثم إن من الأسلوب ماهو حقيقة وما هو مجاز ومررهما إلى قدرة الكاتب ، أو الشاعر . على الابتكار فى الأسلوب[٢] .

ويذهب الدارسون إلى أن « الهزة القوية لبعض قواعد الأسلوب المعيارية جاءت على يد جورج بوفون (١٧٠٧ –١٧٨٨) فى عمله المشهور « مقال فى الأسلوب » الذى انتهى فيه إلى أن « الأسلوب هو الرجل »[٣] .

على أن مصطلح « الأسلوبية » لم يظهر إلا فى بداية القرن العشرين مع ظهور الدراسات اللغوية الحديثة ؛ التى نذكر منها ما قدمته مدرسة عالم اللغة السويسرى « فرديناند دى سوسيور » التى ضمت مجموعة من اللغويين الفرنسيين ؛ ورفضت « اعتبار اللغة جوهرا ماديا خاضعا لقوانين العالم الطبيعى الثابتة ، اذ أنها خلق انسانى ،

---

(١) د . أحمد درويش : السابق ، ص٦١ .

(٢) الخطابة لأرسطو ، الكتاب الثالث ، يتصل بالأسلوب فن الإلقاء . د . محمد غنيمى هلال : المدخل إلى النقد الادبى الحديث ص١٣٠ .

(٣) نفسه ، ص٦١ .

ونتاج للروح البشرى ، تتميز بدورها كأداة للتواصل ، ونظام من الرموز المخصصة لنقل الفكر ؛ فهى مادة صوتية ، لكنها ذات أصل نفسى واجتماعى[1] . وتأسيسا على ذلك . نشأ اتجاهان فى علم الأسلوب : أحدهما . يتمثل فى علم أسلوب التعبير ، ويدرس العلاقة بين الصيغ والفكر . فى عمومه ، وهو الذى ربما كان يقابل بلاغة الأقدمين . والثانى : هو . علم الأسلوب الفردى ، وهو فى واقع الأمر . نقد للأسلوب بدراسة علاقة التعبير بالفرد أو الجماعة التى تبدعه وتستخدمه ؛ ومن هنا . فهى دراسة توليدية ، وليست تقيميية ولا تعقيدية ؛ مما يجعل محورها مختلفا عن محور المدرسة الأولى ، فعلم أسلوب التعبير . لايخرج عن نطاق اللغة ؛ ولا يتعدى وقائعها فى حد ذاتها ، أما علم الأسلوب الفردى فهو يدرس نفس هذا التعبير . فى علاقته بالأشخاص المتحدثين به ، الأول يعتد بالأبنية اللغوية ، ووظائفها داخل النظام اللغوى أى أنه وصفى بحت ، والثانى يحدد بواعثها وأسبابها ، أى أنه توليدى ، الأول يهتم بالنتائج ويتوقف على علم الدلالة ، ودراسة المعانى فى ذاتها ، والثانى يعنى بالمقاصد ويرتبط بالنقد الأدبى »[2] .

ويذهب الدارسون إلى تحديد مولد علم الأسلوب فيما أعلنه العالم الفرنسى « جوستاف كويرتنج » عام ١٨٨٦ فى قوله : إن علم الأسلوب الفرنسى ميدان شبه مهجور تماما حتى الآن .. فوضعوا الرسائل . يقتصرون على تصنيف وقائع الأسلوب التى تلفت أنظارهم . طبقا للمناهج التقليدية ، لكن الهدف الحقيقى لهذا النوع من البحث ينبغى أن يكون أصالة هذا التعبير الأسلوبى أو ذاك ، وخصائص العمل أو المؤلِّف التى تكشف عن أوضاعها الأسلوبية فى الأدب ، كما تكشف بنفس الطريقة عن التأثير الذى مارسته هذه الأوضاع ، ولشد مانرغب فى أن تشغل هذه البحوث أيضا بتأثير بعض العصور والأجناس على الأسلوب ، وبالعلاقات الداخلية لأسلوب بعض الفترات بالفن ، وبشكل أسلوب الثقافة عموماً »[3] .

---

(١) د . صلاح فضل /علم الأسلوب ، ص ١٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص١٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ص١٢ .

ويعد « شارل بالى » Charles Bally (١٨٦٥ - ١٩٤٧) مؤسس علم الأسلوب فى المدرسة الفرنسية ؛ وخليفة « سوسور » فى كرسى علم اللغة العام بجامعة « جنيف » ، وقد نشر عام ١٩٠٢ كتابه الأول « بحث فى علم الأسلوب الفرنسى » ثم أتبعه بدراسات أخرى . أسس بها علم أسلوب التعبير ، فيعرّفه على أنه « العلم الذى يدرس وقائع التعبير اللغوى من ناحية محتواها العاطفى أى التعبير عن واقع الحساسية الشعورية من خلال اللغة وواقع اللغة عبر هذه الحساسية » .

ومنذ سنة ١٩٤١ « عبر ماروزو Jules Marouzeau عن أزمة الدراسات الأسلوبية ؛ وهى تتذبذب بين موضوعية اللسانيات ، ونسبة الاستقراءات ، وجفاف المستخلصات ، فنادىّ بحق الأسلوبية فى شرعية الوجود ضمن أفنان الشجرة اللسانية العامة »[1] .

وفى سنة ١٩٦٠ انعقدت بجامعة « آنديانا » بالولايات المتحدة الأمريكية . ندوة عالمية . شارك فيها أبرز اللسانيين ونقاء الأدباء وعلماء النفس ، وعلماء الاجتماع ، وكان محورها « الأسلوب » ألقى فيها ر . جاكوبسون Roman Jakobson محاضرته حول « اللسانيات والأنشائيه » فأكد سلامة « بناء الجسر الواصل بين اللسانيات والأدب »[2] وما لبث ت . تودورف Tzvetan Todorov أن أصدر أعمال الشكليين الروس مترجمة إلى الفرنسية[3] .

وفى عام ١٩٦٩ يؤكد الألمانى « أولمان » Stephen Ullmann استقرار الأسلوبية . علما لسانيا نقديا . فيقول : « إن الأسلوبية اليوم هى من أكثر أفنان اللسانيات صرامة . على ما يعترى غائيات هذا العلم الوليد ومناهجه ومصطلحاته ، من تردد ، ولنا أن نتنبأ بما سيكون للبحوث الأسلوبية . من فضل على النقد الأدبى واللسانيات معا »[4] .

---

(١) د . عبد السلام المسدى : الأسلوبية والأسلوب ، ص٢٢ .

J uies Marouzeau : précis de stylistique Francaise , paris Massonet cie 1469

(٢)د . عبد السلام المسدى : السابق ، ص ٢٣ .

(٣) نفسه ، ص ٢٤ .

(٤) نفسه ؛ ص٤ .

وفى البحوث الأسلوبية للنصوص الأدبية ؛ ينبغى أن « تستكمل دراسة الأسلوب فى مستوياته اللغوية ، باستخدام المقولات المتصلة بالأدب ، وبالعلوم الفلسفية ، والاجتماعية ، والتاريخية ، ولعل نموذج العلاقة بين النظرية والبحث هنا . لايخلو من اشكالات فى مجال الأسلوب . تشبه ماوجده العلماء من علاقة بين علمى اللغة النظرى والتطبيقى ؛ ولا يمكن إقرار هذه العلاقة مالم تقم على أساس البحث الأسلوبى مثله فى ذلك مثل البحث اللغوى التطبيقى – يستمد بعض مقولاته من العلاقة بين اللغة والأدب من جانب ، واللغة والحياة من جانب آخر »[١] .

فالتحليل الأسلوبى يتعامل مع ثلاثة عناصر :

أولا : العنصر اللغوى : إذ يعالج نصوصا قامت اللغة بوضع رموزها .

ثانيا : العنصر النفعى : الذى يؤدى إلى أن ندخل فى حسابنا مقولات غير لغوية مثل : المؤلف ، والقارىء ، والموقف التاريخى ، وهدف الرسالة وغيرها .

ثالثا : العنصر الجمالى الأدبى : ويكشف عن تأثير النص على القارىء والتفسير والتقييم الأدبى له »[٢] .

ومع أنه « ينبغى للتحليل الأسلوبى . أن يكون كاشفا فى جميع الحالات عن تلك العناصر الثلاثة ، فإنه من الوجهة العملية . كثيرا ما يغفل بعضها مثل مؤلف النص ، أو الموقف التاريخى . إن لم يتضح له الدور الذى يقوم به فى تكوينه ، بيد أن جميع هذه العناصر مترابطة مبدئيا ، وينبنى بعضها على البعض الآخر »[٣] . ذلك أن الأدب يقوم على جوهر اتصالى – الأمر الذى يجعل التحليل الأسلوبى . والتفسير الإعلامى للأدب . يقوم على أساس النموذج الإتصالى : من ؟ يقول ماذا ؟ لمن ؟ وبأى وسيلة ؟ وبأى تأثير ؟ ثم ما يتصل بالموقف العام للاتصال ؛ والهدف من العملية الإتصالية ، ذلك أن التحليل الأسلوبى . يجب أن يقوم على أساس من الوحدة

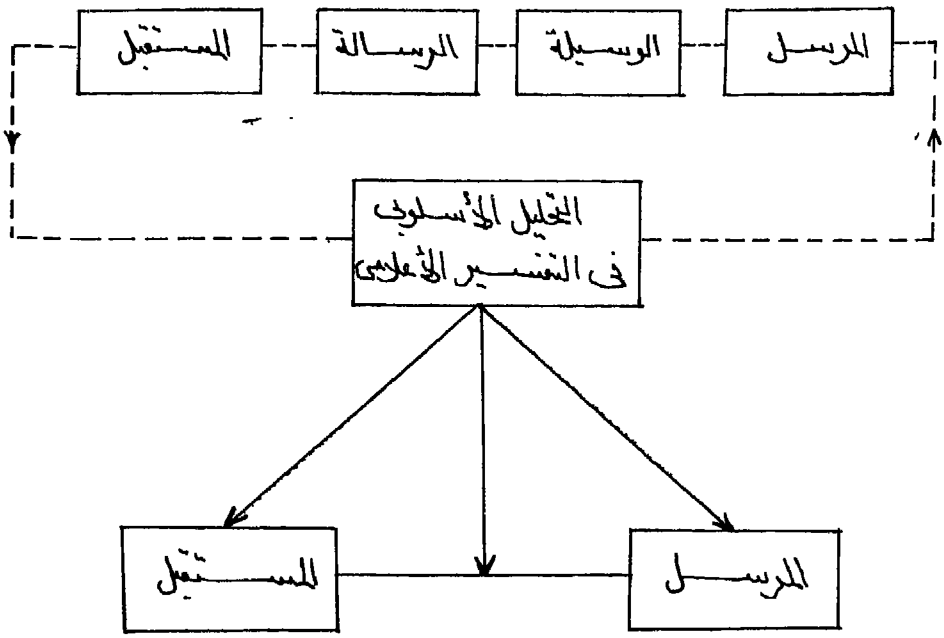
---

(١) د . صلاح فضل / السابق ، ص١٠٠ .

(٢) نفسه ، ص١٠٠

(٣) نفسه ، ص١٠٠

الإتصالية ؛ فالأديب والأسلوب ، والوسيلة ، والمستقبل والاستجابة انما هى جميعا حلقات متصلة فى سلسلة واحدة[1] .



ومن هذا النموذج تبين لنا نقطة الإلتقاء بين التحليل الأسلوبى والتفسير الإعلامى للأدب ؛ وهى النقطة التى تحدد دور العناصر الأدبية الخالصة ، واستيضاح « كيفية فعاليتها » ، الأمر الذى يقتضى أن تؤخذ فى الاعتبار مقولة . تلقى القارىء – المستقبل – لتأثير النص الجمالى باعتباره تدعيما للعنصر النفعى ؛ وفى هذه الحالة يتولى التحليل الموسع الشامل للعناصر الأسلوبية تزويدنا ببيانات كافية لتفسير الأدب ، ويصبح الهدف الرئيسى للتحليل الأسلوبى العميق . إدراك مدى تكامل هذه العناصر فى تحقيق الحد الأقصى لفعالية النص »[2] .

---

(١)د . عبد العزيز شرف : التفسير الإعلامى للأدب ص١٢ .

(٢) د .صلاح فضل : السابق ، ص١٠١ ؛

يذهب « جرينجر » Granger فى دراسته حول فلسفة الأسلوب Essai Sur la Philosophie du style إلى أن دور اللغة فى التوصيل Communication يتضح من اعتماد اللغة على « رموز أو شفرات Codes تحمل معانى معلنة . متفقا عليها بين الجماعة التى تستخدمها على الإجمال ، لكن هذا الرمز قد يكون مشحونا بمعنى واحد محدد ، أو بمعان احتمالية متعددة ، ومن أمثلة الرمز المشحون بمعنى محدد . الإشارات البرقية ، وإشارات الاختزال ، حيث ينعدم الدور الفردى فى التحميل أو التأويل ، ومثل هذا اللون من الإشارات والرموز ، وما يدور فى هذه الدائرة من الوحدات اللغوية ، لايدخل فى باب الأسلوب ، لكن هناك رموزا أخرى تكون قابلة لحمل شحنات تعددية من خلال اتصالها بوسائل لغوية أخرى ، وهذه الرموز هى التى يمكن أن تشكل « أسلوبا » يصلح أن يكون موضعا لدراسة أسلوبية .[1] ذلك أنه يوجد إلى جانب دلالة الرمز Code دلالة أخرى تسمى : « دلالة ما تحت الرمز » وهى الدلالة الاصطلاحية التى يلجأ إليها جنس أدبى معين . لتوظيف الرمز اللغوى على نحو خاص به ، مثل دلالة النبر أو الوزن فى الشعر ، أو دلالة الإستخدام فى القوافى ، على أن التكرير الصوتى يدخل الكلام فى إطار فن معين .. وهكذا ، وهناك إلى جانبها . دلالة ثالثة . يمكن أن تسمى . دلالة « مافوق الرمز » وهى لا تخضع هذه المرة للجانب الاصطلاحى للجنس الأدبى ، ولكنها ترجع إلى الخصائص الفردية للمبدع ، ومدى قدرته على التنسيق ، أو توصله إلى خلق نظام داخلى معين فى عمله ،مستغلا إمكان الرمز ، وماتحت الرمز ، وكتشاف هذه القدرة عند المؤلف . لايتم إلا من خلال قارىء واع ، أو ناقد متأمل . ومن هنا فإن الحقيقة الأسلوبية — كما يراها « جرينجر » ليست حقيقة معدة سلفا فى اللغة . وهى كذلك ليست حقيقة بسيطة ، ولكنها محاولة شاقة وممتعة ، يشترك فيها المبدع الجيد (المرسل) والمتلقى الواعى (المستقبل) فى لحظتين متعاقبتين[2] .

وتلتقى الأسلوبية البنائية . مع التفسير الإعلامى للأدب ؛ فى التفريق بين الرمز الثنائى (رمز — رسالة) Code Message على نحوما يدعو إلى ذلك « جاكوبون » ؛

---

(١) د .أحمد درويش : السابق ، ص٦٢ .

(٢) نفسه ، ص ٦٢ .

.M. Dufrenne. Style. Encyclopedia Universale V. 15. P. 463

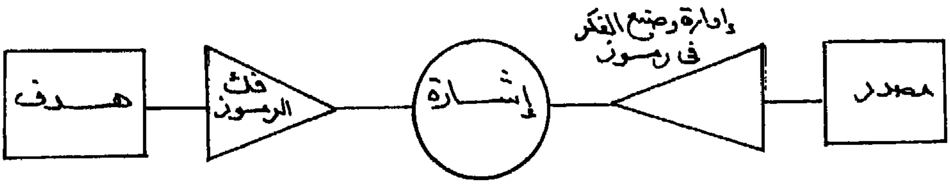
فالمتكلم يبعث برسالة « إلى السامع ، ولكى تكون فعالة ؛ فإن هذه الرسالة تقتضى سياقا تتصل به وتندرج فيه ، كما تقتضى كذلك شفرة تشير إليها ، وتحدد رموزها . كى يستطيع السامع عند التقاطها . أن يعى مضمونها طبقا لتلك الشفرة المشتركة بينه وبين المتكلم اشتراكا كليا أو جزئيا على الأقل .

وكل عنصر من عناصر الرسالة يحدد « وظيفة مختلفة للغة . وبالرغم من أننا نميز المظاهر الأساسية لها . إلا أننا لا نكاد نجد رسالة لغوية تقتصر على وظيفة واحدة منها . ويتركز الأختلاف حينئذ – لافى احتكار كل وظيفة للرسالة – وإنما فى ترتيب الأولوية فيما بينها . مما يجعل البنية اللغوية للرسالة تتوقف أساسا على الوظيفة السائدة فيها »(١) .

ويذهب « جورج لندبرج » إلى أن مصطلح « الاتصال » يستخدم للإشارة إلى التفاعل بوساطة العلاقات والرموز ، ويذهب .. تأسيسا على ذلك .. إلى أن التفاعل الذى يؤدى إلى زيادة التوتر . يعد اتصالا ، ولكن درجته تختلف ، إذ ينطوى على درجة مختلفة من التعريف الرمزى(٢) .

ويميز « ادوارد سابير » بين الاتصال المحدد والاتصال الضمنى ؛ فيقول : إن الاتصال المحدد : هو اتصال بالمعنى التقليدى ، أما الاتصال الضمنى فهو التفسير البدهى للرموز اللاشعورية . نسبيا ، والاستيعاب اللاشعورى للافكار والسلوك فى ثقافة الفرد(٣) .

ويقدم الشكل التالى عناصر عملية الاتصال التى يرتكز عليها التحليل الأسلوبى : (انظر الشكل ص٣٤)



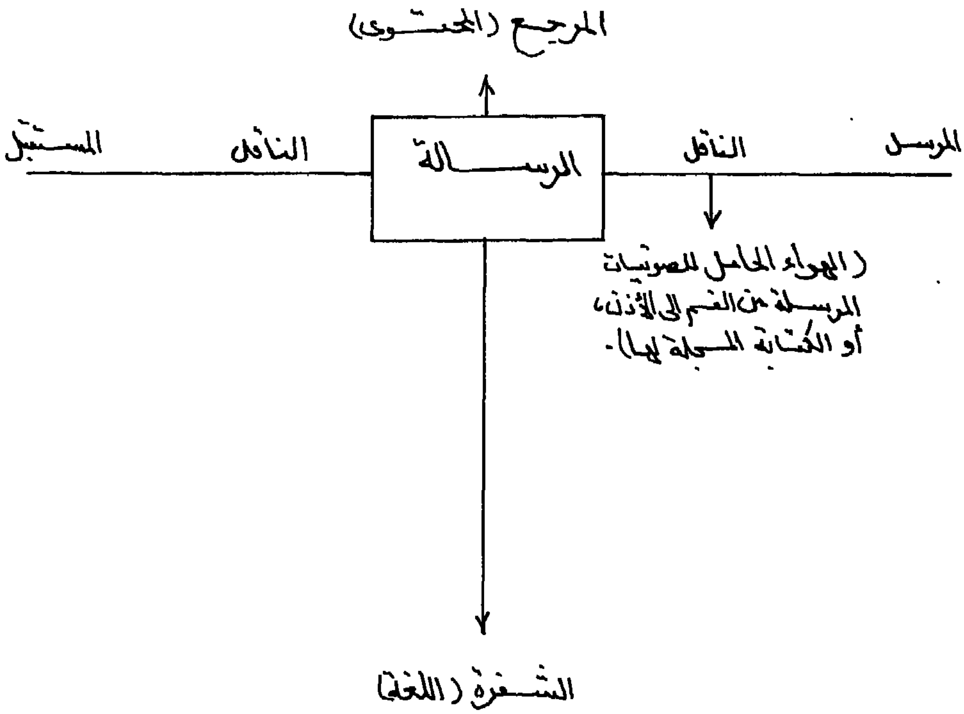
---

(١) د . صلاح فضل / السابق ص ١١٧ .

(٢) Gearge Lundberg : Foundations of sociology (N .Y , 1939)

(٣) د . عبد العزيز شرف : المدخل إلى وسائل الإعلام .

وهو نموذج يقتضى الاعتداد بجميع الوظائف اللغوية فى الاتصال ؛ ولذلك يركز «جاكوبسون» فى تحليله للثنائى (رمز – رسالة) على الجزء الثانى منهما – دون أن يهمل الأول ، لأنه يعتقد أن « الرسالة » هى التجسيد الفعلى للمزج بين أطراف هذا الثنائى ، وهو مزج عبر عنه «جاكوبسون» حين سمى إحدى دراساته حول هذه القضية .. « قواعد الشعر وشعر القواعد » وهو يعنى بقواعد الشعر . دراسة الوسائل التعبيرية الشعرية فى اللغة ؛ وبشعر القواعد . دراسة الفعالية الناتجة من وضع هذه الوسائل موضع التطبيق . لقد تصور «جاكوبسون» خريطة تجسيدية توضح المراحل التى تمر بها « الرسالة » بين المرسل (المتكلم أو المؤلف) والمستقبل (السامع أو القارىء) على النحو التالى[1] :



(١) د . أحمد درويش : السابق ، ص٦٥ .

وفى هذا النوذج نلتقى بعدد من العناصر ؛ فى مقدمتها (المرسل) أو (الباثّ) L – emetteur وهو (من مصطلحات الفيزياء . استعملها أصحاب نظرية الإعلام ؛ وتبناها رواد نظرية الاتصال La Communication ، فى تعريف الظاهرة اللغوية ؛ ثم استبدلها بعضهم بكلمة (مرسل) : Destinateur ؛ والباثّ طرف أول فى جهاز التخاطب يقابله طرف ثان أطلق عليه مجازا .. المصطلح الفيزيائى (المستقبل) Le récepteur ثم ازدوج بمصطلح آخر هو المرسل إليه Le destinataire[1] »

وتصل المرسل بالمستقبل قناة Un canal تضمن الاتصال ، وهى ذبذبات كهربائية فى التخاطب الهاتفى ، وأشعة ضوئية فى التخاطب الكتابى ، وهى تموجات هوائية فى الخطاب الشفوى ، وتحمل القناة (الرسالة) Le message « وقد ارتبك الفكر اللسانى فى تحديد هوية (الرسالة) فألح بعض اللسانيين على أنها مجموعة علامات تركبت وانتظمت حسب قوانين اللغة المستعملة وسننها ، بحيث ان الرسالة تشكُّل كلاميٌّ قبل كل شيء ، وما دلالتها المعنوية .. سوى اهتداء المستقبل إلى تفكيكها حسب نفس السنن التى انتظمت بموجبها[2] .

أما مصطلح « الرسالة » message فيشير إلى ما يتولد عنها من وظيفة إنشائية La Fonction Poétique ، وهى « الوظيفة التى تكون فيها الرسالة غاية فى حد ذاتها . لاتعبرّ إلا عن نفسها فتصبح هى المعنية بالدرس ، وقد جرّ البحث فى العلاقة بين الرسالة والوظيفة الأدبية إلى بعض المواقف المتباينة ، فقد ذهب بعضهم إلى أن هذه الوظيفة ليست موجودة فى الكلام العادى الذى تؤدى فيه اللغة وظيفتها الاجتماعية الاساسية قائلين : إن الوظيفة الأدبية تكون إذ ذاك فى الدرجة الصفر ، واعترض عليهم آخرون محتجين بأن ذلك يدفع بالبحث فى شعاب تقف دون تقدمه ، إذ يصعب تحديد نقطة الانطلاق أو المعيار الذى تكون فيه اللغة فى الدرجة الصفر ، وقد ذهب جاكوبون .. حسما لهذا النزاع .. إلى أن كل رسالة مهما كانت غايتها .

---

(١) د . عبد السلام المسدى : السابق ، ص١٣٧ .

(٢) نفسه ، ص١٣٨ .

تتضمن وظيفة أدبية ، بقى أن درجة هذه الوظيفة تختلف من نص إلى آخر »[1] .

فالنموذج الاتصالى الذى يشمل المرسل والمستقبل والرسالة ؛ يتضمن فى أعطافه « بعض الثوابت التى تتحكم فى هيكل البناء اللغوى ، ويمكن أن تكون مفتاحاً له . وهذه الثوابت يسميها « جاكوبون .. الموصلات . أو مغيرات السرعة ؛ ومن بينها هذا التقسيم الثلاثى للضمائر ؛ إلى ضمائر المتكلم ، والمخاطب والغائب ، الذى يلتقى مع تقسيم ثلاثى لوظائف اللغة ، يتمثل فى الوظيفة التعبيرية (أنا المتكلم) ، والوظيفة التأثيرية ، (أنت المخاطب) والوظيفة الذهنية (هو الغائب) ؛ ويتلقى أيضا مع تقسيم ثلاثى فى العمل الأدبى ، يتمثل فى المؤلف (أنا) والقارىء (أنت) والشخصيات (هو) ؛ ويرتبط ذلك فى النهاية بميول بعض الأجناس الأدبية إلى استعمال بعض هذه الموصلات ، أو مغيرات السرعة . دون بعضها الآخر . فالشعر الملحمى مثلا يركز على استعمال ضمير الغائب ، ومن ثم . على الوظيفة الذهنية للغة ، فى حين أن الشعر الغنائى يركز على ضمير المتكلم ، ومن ثم على الوظيفة التعبيرية »[2] .

ومن المشكلات الأساسية التى يعترف بها عدد من الأسلوبيين ، مشكلات التمييز بين السمات والاتساق التى لانهاية لها فى النص ، والتى يمكن عزلها عن طريق التحليل اللغوى ، وتلك السمات هى السمات الأسلوبية ، أى أنها سمات تعين فعلا التأثيرات الجمالية وغير الجمالية للنص على القارىء .

ويعتمد الأسلوبيون الذين يستهدفون الوصول إلى الدقة العلمية على الطرق الكمية لحساب التكرار النسبى للسمات الأسلوبية ، وكثيرا ما يستخدمون الحسابات الألكترونية لرسم جداول التكرار للسمات التى يقال عنها انها تصف أسلوبا مميزا ، وهناك آخرون يستعملون بدلا من ذلك . المفاهيم اللغوية . مثل التمييز بين العلاقات اللفظية والجملية فى اللغة ، أو يستخدمون النحو التحـويلى **Grammar Transformation** ، والتمييز الذى يحتويه بين البناء السطحى **Surpace Structure** والبناء العميق **Deep Structure** .

---

(١) حمادى صمود : معجم لمصطلحات النقد الحديث – قسم اول

(٢) د . أحمد درويش : السابق ، ص٦٦

وتتمثل منطلقات المدرسة التحويلية التوليدية . فى أن غاية اللسانى . أن يحلل المحركات التى بفضلها يتوصّل الإنسان إلى استخدام الرموز اللسانية ، سواء أكانت تلك المحركات نفسانية ، أو « ذهنية – ذاتية » Mentaliste (s) فلا يمكن أن يقتصر عمل اللسانى عندهم على اقامة ثبت الصيغ التي تنبنى عليها لغة من اللغات ، وإنما يتعدى ذلك إلى تفسير نشأة تلك الصيغ ، وتأويل تركّبها حتى يهتدى إلى حقيقة الظاهرة اللغوية ، ويركز التوليديون عنايتهم على المستويات القصوى فى الكلام ، وتجسمها التراكيب ، والجمل ، معرضين نسبيا عن المستويات الدنيا ، وهى مستوى الصرف ومستوى وظائف الاصوات La Phonologie إذ يعتبر التوليديون أن علم التركيب La Syntaxe الذى يدرس صياغة الجملة ، وانتظامها بين الجمل . هو الذى يستطيع النقاذ إلى محركات الكلام »[1] .

ويفرق « تشومسكى » بين الكفاية .. أو القدرة اللغوية Competence وبين الأداء . أو الانجاز اللغوى Performance ويعنى بالمصطلح الأول منهما : الوسائل المتوافرة بين يدى الذات المتكلمة . من أجل التعبير عن نفسها . بينما يعنى بالمصطلح الثانى . التحقيق العيني للمقدرة اللغوية ، ولكن الملاحظ أن « تشومسكى يدخل فى نطاق المصطلح الأول . تلك المعرفة الحدسية التى تسمح لكل فرد بأن يحكم ما إذا كانت جملة ما بعينها .. ممكنة أو غير ممكنة فى لغته الأصلية (التى يتكلم بها) ، أو ما إذا كانت عبارة ما بعينها سليمة أو غير سليمة ، ومن هنا فإن كلمة « الكفاية » أو المقدرة اللغوية . عند « تشومسكى » تعنى أكثر مما تعنيه كلمة « لغة » عند « دى سوسير » ، لأنها تفترض وجود نشاط إبداعى لدى الذات المتكلمة ، يتعارض مع الطابع السلبى غير المتعمد ، أو غير المدبر الذى كان « دى سوسير » ينسبه إلى « البغة »[2] .

يقول « تشومسكى » « إن ما أصبح يمثل اليوم النقطة المركزية .. التى تدور حولها كل الدراسات اللغوية الحالية ، إنما هو المظهر الإبداعى للغة ، على مستوى الاستعمال الجارى العادى .. إن كل الظواهر لتوحى بأن الذات المتكلمة تخترع

(١) د . عبد السلام المسدى : السابق ، ص ٢١٠

(٢) د . زكريا ابراهيم : مشكلة البنية ، ص٧٢ .

لغتها – بوجه ما من الوجوه – كلما عمدت إلى التعبير عن نفسها ، أو هى تعاود اكتشاف تلك اللغة كلما سمعت الآخرين – من حولها – يتكلمون بها ، وكأنما هى قد تمثلت – فى صميم جوهرها المفكر – نظاما متسقا من القواعد ، أو مجموعة منتظمة من القوانين التكوينية . التى تحدد بدورها التفسير السيمانطيقى (الدلالى) الطائفة غير محدودة من العبارت الحقيقية ، منطوقة كانت أم مسموعة ، وبعبارة أخرى . يمكن القول .. ان كل الظواهر توحى بأن الذات المتكلمة تملك ضربا من « النحو التوليدى » الذى يسمح لها بابتكار لغتها الخاصة » .

ونخلص مما تقدم إلى أن الأسلوبية يمكن أن تعرف بالبحث عن الأسس الموضوعية لإرساء علم الأسلوب[1] . وتتحدد الأسلوبية بكونها « البُعد اللسانى لظاهرة الأسلوب طالما أن جوهر الأثر الأدبى لا يمكن النفاذ إليه إلا عبر صياغاته الابلاغية »[2] . ويذهب «جاكوبسون» إلى أن الأسلوبية .. بحث عما يتميز به الكلام الفنى .. عن بقية مستويات الخطاب أولا ؛ وعن سائر أصناف الفنون اللسانية ثانيا .

ويذهب « آريفاى » Michel Arrivè إلى أن « الأسلوبية وصف للنص الأدبى . حسب طرائق مستقاة من اللسانيات » .. كما يذهب « دولاس وريفاتار » إلى أن « الأسلوبية تعرف بأنها منهج لسانى » . وينطلق الأخير من تعريف الأسلوبية بأنها . علم يستهدف الكشف عن العناصر المميزة . التى يستطيع بها المؤلف (المرسل) مراقبة حرية الإدراك ؛ لدى القارىء (المستقبل) والتى بها يستطيع أيضا أن يفرض على المستقبل وجهة نظره فى الفهم والإدراك ، فينتهى إلى اعتبار الأسلوبية « لسانيات » تُعنى بظاهرة حمل الذهن على فهم معين ، وإدراك مخصوص[3] .

---

(١) د . عبد السلام المسدى : السابق ص٣٤ .

(٢) Pierre Guiraud: La Stylistique, Coll.. Que Sais Je? No 646— P. U. F. 7Eue 1472

فى : د . عبد السلام المسدى : السابق ، ص٣٥ .

(٣) د .عبد السلام المسدى السابق ، ص٤٩ .

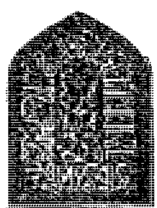
ويذهب « المسدى » إلى أن اللسانيات نفسها قد ولّدت « البنيوية » التى احتكت بالنقد الأدبى « فأخصبا معا « شعرّية » جاكوبسون و« انشائية » « تودورف » و « أسلوبية » ريفاتار ، ولئن اعتمدت كل هذه المدارس . على رصيد لسانى من المعارف . فإن الأسلوبية معها قد تبوأت منزلة المعرفة المختصة بذاتها أصولا ومناهج »[1] .

***

(١) نفسه ، ص٥١ .

الفصل الثانى

جذور الأسلوبية فى البيان العربى



أخذ النقاد . والأدباء . والكتاب . فى القرن الثانى . يحاولون فهم أسرار البيان ، ووضع أصول موجزة تحدد آراءهم فى جمال الأسلوب ، واشترك فى النهوض بهذا العبء منذ العصر الأموى . كثيرون ، فى مقدمتهم : أئمة الشعر والخطابة ، وفحول الكتاب ، والرواة ، وعلماء الأدب ، من بصريين وكوفيين وبغداديين ، ورجال النقد الذين جمع الكثير منهم مع الثقافة العربية ثقافات أخرى ، ونشأت من ذلك آراء كثيرة فى البيان ، وتحديده . نجدها فى مصادر كتب الأدب والنقد والبلاغة .

ثم ألفت فى القرن الثالث كتب تجمع كثيرا من الأراء والدراسات الموجزة حول البيان وبحوثه ، ومن هذه الكتب :

إعجاز القرآن لأبى عبيدةم ٢٠٧هـ والفصاحة للدينورى ٢٨٠هـ وصناعة الكلام للجاحظ ونظم القرآن والتمثيل له أيضا والبلاغة وقواعد الشعر للمبرد والبلاغة للحرانى وقواعد الشعر لثعلب والبلاغة والخطابة للمروزى والمطابق والمجانس لابن الحرون وتهذيب الفصاحة لأبى سعبد الأصفهانى وإعجاز القرآن فى نظمه وتأليفه للواسطى المعتزلى (–٣٠٦هـ) وصنعة البلاغة للباحث .

على أن أهم الكتب التى تناولت بعض مسائل البيان بالبحث ، أو التى ألفت فيها خاصة . هى البيان والتبيين للجاحظ ، وهو أهم ما ألف فى هذا الطور من كتب تتصل ببلاغات العرب نثرا وشعرا ، وتتعرض لتجديد البلاغة والبيان وما حولهما من آراء كانت ذائعة فى عصر الجاحظ ، وفيه كثير من بحوث البيان وأصوله .

ولا يعتبر الجاحظ وإن كانت دراساته موجزة مفرقة كما يقول أبو هلال[1] ، فهى على كل حال ذات أثر كبير فى نشأة البيان ، وهى التى أوحت إلى كثير أن يعدوا الجاحظ الواضع الأول لعلم البيان . ومن الخطأ التهوين من أثر الجاحظ فى البيان ، كما ذهب إليه بعض الباحثين .

وعلى نهج الجاحظ سار المبرد فى كتابه الكامل ، ففيه آراء كثيرة وروايات مدونة تتصل بالبيان وموضوعاته .. وكذلك ابن المدبر فى كتابه الرسالة العذراء ، ثم ابن عبد ربه فى العقد الفريد ، والحصرى فى « زهر الآداب » وسواهم .

---

(١) ٦و٧ الصناعتين .

ويبدأ التدوين فى صميم البيان بتأليف ابن المعتز (٢٤٧هـ ، وقد ذكر فيه مؤلفه ألوان البديع وهى : الاستعارة - التشبيه - التجنيس - المطابقة - رد العجز على الصدر - المذهب الكلامى - الالتفات - الاعتراض الرجوع - حسن الخروج تأكيد المدح بما يشبه الذم - تجاهل العارف - حسن التضمين - التعريض والكناية - الإفراط فى الصفة - لزوم مالا يلزم ، وهذه الألوان كلها هى موضوع علمى البيان والبديع .

وبعد ذلك ظهر كتاب نقد الشعر لقدامة . وقد تكلم فيه على سر الجمال وأسباب القبح فى الشعر وعناصره : اللفظ والمعنى والوزن والقافية ، وعرض بسبب ذلك لكثير مما عرض له ابن المعتز ، وزاد عليه أنواعا كثيرة . ثم ظهر نقد النثر ، وهذا الكتاب صورة قوية لفهم مؤلفه للبيان وأقسام الكلام وألوان الأساليب مما تأثر فيه بذوقه العربى وثقافته اليونانية معًا .

أما كتاب الصناعتين لأبى هلال المتوفى عام ٢٩٥هـ ، ففيه تحديد البلاغة والبيان وأوصافهما وشرح الآراء فيهما ، وذكر لألوان البديع وللسرقات الشعرية وغيرها . وقد تأثر فيه أبو هلال بالجاحظ وابن المعتز وقدامة إلى حد بعيد .

ومن الكتب التى تتعرض لبحوث البيان : الموازنة للآمدى ، والوساطة للجرجانى ، واعجاز القرآن للباقلانى ، والعمدة لابن رشيق وهو أكثرها اتصالا بالبلاغة ، وسر الفصاحة لابن سنان ، وهو كتاب جليل فى البيان والنقد والأدب ، مؤلفه هو الأمير ابن سنان الخفاجي الحلبى (٤٢٢ - ٤٦٦هـ) . وإذا كان الجاحظ هو واضع أسس البيان العربى حقاً ، فعبد القاهر هو الذى رفع قواعده .

وعلى الجملة فإن عبد القاهر قد أخذ من آراء السابقين ما يقوى به نظريته فى النظم ، وزاد عليهم جميعا وانفرد بمذهب خاص فى البيان والنقد ، أثرى به البلاغة العربية إثراءً لاحدود له ، وجعلها فى مرحله جديدة سارت فيها من عصره حتى اليوم ،

---

(١) ٣٠ المرجع السابق .

هذا ويذكر ابن الأثير أن الشعر والخطابة فى الأدب العربى لم يتأثراً بثقافة اليونان البيانية ، وينفى أن يكون هو قد تأثر فى رسائله وكتابته بما ذكره علماء اليونان فى حصر المعانى ، ويقرر أنه اطلع على ما كتبه ابن سينا فى الخطابة والشعر فلم يوافق ذوقه ، وأن ما ذكره لغو لايستفيد به صاحب الكلام العربى شيئاً[1] .

ويرى باحث محدث أنه كان للبلاغة اليونانية أثر فى علم البيان العربي[2] ، ويرى آخر أن أرسطو المعلم الأول للمسليمن فى علم البيان[3] وأن الكتاب والمتكلمين الذين عاشوا فى القرن الثانى ، وأثروا فى البيان وتطوره جلهم أعاجم[4] ، وأن متكلمى المعتزلة بتضلعهم فى الفلسفة اليونانية . من مؤسسى البيان العربى ، وأنه حتى منتصف القرن الثالث . لم يوجد إلا بيان عربى واحد كان لا يزال فى دور الطفولة ، وكان خصباً جامعاً للروح العربى والفارسى واليونانى ، ثم وجد من ذلك الوقت بيانان : عربى بحت ويونانى يجهر بالأخذ عن أرسطو[5] ، وحتى العربى البحت تأثر باليونان[6] .

وتُرجم كتاب الخطابة لأرسطو فى النصف الثانى من القرن الثالث . وجاء قدامة فاستفاد من كتاب الخطابة وفهم منه كل ما يمكن أن ينتفع به وطبقه على الشعر العربى . وكان يجهل كتاب الشعر[7] ، وقد درس قدامة الفلسفة وخاصة المنطق ... على أن تشريع الفلسفة للأدب فى رأى الدكتور طه حسين يظهر أول مرة فى « نقد الشعر » ثم فى « نقد النثر » الذى هو مستمد من آراء أرسطو فى الجدل والقياس والخطابة ، ثم يظهر عند عبد القاهر واضحاً جلياً .

وأقول : إن المشتغلين بالفلسفة اليونانية قد اشتركوا مع الجماعات الأخرى فى خدمة البيان ، واستعانوا بطرق اليونانيين ومناهجهم فى دراسات البلاغة ، والتأليف

---

(١) ٢٠ المثل السائر .
(٢) ٢٧٧ج١ ضحى الإسلام .
(٣) ٣١ مقدمة نقد النثر .
(٤) ٦ المرجع .
(٥) مقدمة نقد النثر .
(٦) ص١١ المرجع .
(٧) ص٧ المرجع

فيها ، كما أن للفرس وما ترجم من قواعد بلاغتهم أثراً ما فى البلاغة العربية[١] .

وإذا ، ففى البيان العربى عناصر ثلاثة : عنصر عربى ، وعنصر فارسى ، وعنصر يونانى ، ولا شك أن واضعى البيان قد أفادوا من هذه العناصر الثلاثة إلى حد كبير .

ويقول باحث محدث : يستطيع الباحث أن يقرر مطمئنا أن نشأة البلاغة كانت عربية ، لكنه لا يستطيع أن ينكر أن العنصر الأجنبى قد أتصل بها . فأخذ يؤثر فى تطورها ، ويبعدها عن الطريقة الأدبية العربية ويسيطر عليها ، حتى إذا اشتد سلطان هذا العنصر . صارت فلسفة خالصة على أيدى السكاكى وأصحابه[٢] .

وبعد ، فإن العلماء يختلفون فى وضع البيان العربى اختلافا كبيراً : فبعضهم يذهب إلى أن واضعه هو الجاحظ ، الذى كان أول من أهتم به وألف فى بحوثه ، وجمع آراء كثيرة فيه فى كتابه « البيان والتبيين » وهو الدكتور طه حسين[٣] ومن ذهب مذهبه .

ويرى البعض أن نشأة البلاغة قديمة ، وأنها سبقت القرآن ، وتطورت بعده[٤] ولا شك أن صاحب هذا الرأى لا يفرق بين البلاغة كفن وبينها كعلم ، فلاشك أن الأدب وخواصه الفنية موجودان من قديم ، وأما معرفة هذه الخصائص ودراستها على أنها علم وقواعد . فلم توجد إلا بعد القرن الثانى ، « فعلم البلاغة إسلامى لا عهد للجاهليين به »[٥] ، والبلاغة باعتبارها علماً مدروساً ليست من علوم العصر الجاهلى إنما هى دراسة متأخرة فى نشأتها »[٦] .

---

(١) يقول أبو هلال : وكان عبد الحميد الكاتب قد استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها من اللسان الفارسى فحولها إلى اللسان العربى الخ » .

(٢) ص ٥٢ البلاغة العربية فى دور نشأتها – للدكتور سيد نوفل ط١٩٤٨ – مكتبة النهضة .(٣) راجع ٣ ، ٣٠و ٣١ مقدمة نقد النثر الدكتور طه – طبع لجنة التأليف ، ١٧٠ البلاغة العربية فى دور نشأتها .

(٤) ٤٨ /١ النثر الفنى .

(٥) ٢٦ تاريخ البلاغة العربية للأستاذ أحمد شعراوى – مخطوط بمكتبة كلية اللغة .

(٦) ٤ ، ٥مجلة الأدب والفن عدد نوفمبر ١٩٤٥ من مقال « خواطر فى الأدب العربى » للأستاذ جب .

ويذهب باحث محدث إلى أن سيبويه إمام النحو العربي المتوفى عام ٨٨ هـ هو الذى بدأ بوضع علم البيان والبلاغة[١] . من حيث رجحت أن ابن المعتز مهد الطريق للكتابة فى البلاغة العربية .

ويذهب كثيرون إلى أن واضع البيان العربي هو عبد القاهر الجرجانى المتوفى عام ٤٧١هـ ومن هؤلاء صاحب الطراز : على بن حمزة العلوى . قال فى مقدمة كتابه ما نصه :

وأول من أسس من هذا الفن قواعده ، وأوضح براهينه ، وأظهر فوائده ورتب أفانينه ، الشيخ العالم النحرير ، علم المحققين ، عبد القاهر الجرجانى . ويذهب آخرون إلى أنه السكاكى ، وأنه هو الذى استبد بشرف وضع علم البيان ، ويخطىء كثيرون حين ينسبون القول بذلك إلى ابن خلدون ، لأن ابن خلدون قال فى مقدمته : « وأطلق على الثلاثة عند المحدثين اسم البيان . وهو اسم للصنف الثانى ، لأن الأقدمين أول من تكلموا فيه ، ثم تلاحقت مسائل الفن واحدة بعد أخرى ، وكتب فيها جعفر بن يحيى والجاحظ وقدامة وأمثالهم إملاءات غير وافية ، ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئاً فشيئا . إلى أن مخض السكاكى زبدته ، وهذب مسائله ، ورتب أبوابه ، على نحو ما ذكرناه آنفاً من الترتيب ، وألف كتابه المفتاح[٢] ، فابن خلدون إنما يعنى أن الساكى هو الذى هذب مسائل البيان ورتب أبوابه ، مع اعترافه بأن البحث البيانى قديم ، والتأليف فى مسائله سابق على عصر السكاكى بقرون ، فهو يعترف للسكاكى بميزة التهذيب والترتيب لمسائل البيان العربى ، ولم يعترف بأنه هو واضح البيان ، وفرق كبير بين الرأيين عند النظر .

وفى رأيى أن عبد الله بن المعتز الشاعر العباسى المشهور المتوفى عام ٢٩٦هـ هو أول مؤلف فى البيان والبلاغة ، وذلك بتأليفه كتابه « البديع » ، الذى هو أول عرض لموضوعات علمى البيان والبديع ، بنظام سهل جميل مع الشواهد والأمثلة ، أما الجاحظ فلم يكن له هذا الشرف ، لأن البيان والبلاغة عنده أقوال مفرقة وكلمات مروية . وآراء عامة ، وأما عبد القاهر فقد أتى بعد كثير من العلماء الذين أفاد منهم ،

---

(١) محاضرة ألقاها الأستاذ أحمد مصطفى المراغى عام ١٩٤٢ .

(٢) ٥٥٢ المقدمة لابن خلدون – طبع التجارية .

وقبس من دراستهم ، وأما السكاكى فقد نهج نهج عبد القاهر مع شيء من التفلسف ، وعمق الإفادة من المنطق فى دراسة البيان ، ومع التحديد والتقسيم والتبويب والتمييز بين بحوث البيان والمعانى .

أما أن ابن المعتز أول مؤلف فى علم البديع . فبدهى لايحتاج إلى جدل ، وأما أنه أول مؤلف فى علم البيان ، فلأنه بحث التشبيه والاستعارة والكناية فى كتابه ، وإن كان ذلك بوجه إجمالى بسيط ، وأما علم المعانى فليس لابن المعتز ولا لكتابه أثر فيه ... ونحن كذلك لانسند وضع علم المعانى إلى عبد القاهر ، لأن دراسته له قد سبقتها دراسات كثيرة من أهمها دراسة : مؤلف نقد النثر ، والآمدى فى الموازنة ، وقدامة فى نقد الشعر ، والباقلانى فى إعجاز القرآن ، وابن سنان فى سر الفصاحة ، وابن رشيق فى العمدة ، وإذا كانت مباحث علم المعانى عند هؤلاء غير مميزة ، فنستطيع أن نقول إنها كذلك عند عبد القاهر ، وإن كان أكثر إحاطة وتفصيلا ونقداً وتحليلا : وهى ومثلها دراسات للبيان والبديع لم ترتب وتوضع فى الصيغة الأخيرة لها إلا بجهود السكاكى الذى فهم عبد القاهر فهما بعيداً . ولقط منه كل شاردة وأخذ عنه كل أفكاره ، بل أخذ بعض الآراء التى أبطلها عبد القاهر فجعلها رأياً له ، مع الترتيب والتبويب والتنسيق .

والباحثون يعترفون بأثر ابن المعتز وكتابه فى دراسات البلاغة والبيان : يقول المستشرق كراتشوفسكى الذى نشر البديع لأول مرة فى أوربا ، فى مقدمته التى كتبها بالإنجليزية للكتاب ، مصوراً أثره فى تاريخ علم البديع : «وقل من الكتب فى موضعه ما يدانيه تأثيراً فى الأجيال التى تلته ، بل ندر أن يجد الإنسان فى كتاب . مسألة أساسية ليس لها أصل فى كتاب ابن المعتز الذى نهج نهجاً جديداً» .

ويقول باحث محدث : قد أثر الكتاب فى تاريخ علوم البلاغة كلها فقد كان البديع لذلك العصر يشمل المعروف من ألوان البلاغة كلها ، وقد تحدث ابن المعتز فيه عن الاستعارة والتشبيه والكناية ، ولانستطيع الحكم على مقدار ابتكاره فى هذه الفنون والمحاسن لكن التشبيه والاستعارة والتعريض والكناية ، قد سبق بها ، والمذهب الكلامى منقول عن الجاحظ ، ومهما يكن من شيء فلو لم يكن له من جهد سوى التنظيم والجمع لكفاه .

وعلى أى حال فذلك لايغض من شرف عبد القاهر ومنزلته فى البيان العربى ، فإننا لانشك فى أن عبد القاهر أسس مدرسة بيانية ، قوامها الذوق وعمق النقد والفهم والتحليل للأدب ، والموازنة بين شتى مأثوراته ، وهو الذى عرض لمسائل البيان بالتفصيل والإطناب والتحليل والتمثيل ، وأفاد منه جميع من أتى بعده من رجال البيان والبلاغة .

يقول كاتب[1] : استقر بين العلماء والأدباء ، ليس ابن خلدون ، بل الإمام عبد القاهر الجرجانى هو مؤسس البلاغة العربية ، وأول من أقام عمدها ، ووضع لها الصوى والأعلام ، وأخذ بضبعيها ، وأناف بها على اليفاع وسن لها رسوما وقوانين تعرج عليها ، بأسلوب لايقوم بفصاحته لسان ، قال السيد يحيى بن حمزة الحسينى صاحب « الطراز فى علوم حقائق الإعجاز » فى فاتحة كتابه هذا ، وهو من هو علما وفضلا : « وأول من أسس من هذا الفن قواعده . وأوضح براهينه ، وأظهر فوائده ورتب أفانينه ، الشيخ العالم علم المحققين عبد القاهر الجرجانى . فلقد فك قيد الغرائب بالتقيد ، وهد من سور المشكلات بالتسوير المشيد ، وفتح أزاهره من أكامها ، وفتق أزاهره بعد إستغلاقها واستبهامها ، وله من المصنفات فيه كتابان : أحدهما لقبه بدلائل الإعجاز ، والآخر لقبه بأسرار البلاغة ، ولم أقف على شيء منهما مع شغفى بحبهما ، وشدة إعجابى بهما ، إلا مانقله العلماء فى تعاليقهم منهما » وغير صاحب الطراز ممن يعتقدون أن عبد القاهر هو مؤسس فن البلاغة كثير ، وإن لهم من كتابيه : أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز لدليلا أى دليل ، وحجة ليس بعدها من حجة ، تصحح ماذهبوا إليه ، وتقنع كل جاحد مباهت » ، ولكننا نسائلهم : هل ابتكر عبد القاهر كل هذه المباحث ابتكاراً ، وارتجلها ارتجالا فهو ابن بجدتها وأبو عذرها ؟ وإنا لنعفيهم من الإجابة فنقول إن عبد القاهر وجد لمن سبقه من العلماء والأدباء بحوثا وآراء فى البيان العربى متفرقات فى أثناء كتب النقد والأدب . فعمد إليها ولم شملها وجمع شتاتها ، وضم الإلف إلى أليفه ، والنسيب إلى نسيبه ، فكان له من كل ذلك مجموعة ضمنها كتابيه : أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز ، وهو تارة يقر بالفضل لأربابه فيصرح بأسمائهم ، وتارة يغفلهم ويضرب عنهم صفحا .

(١) هو الدكتور رياض هلال من كلمة نشرها بمجلة الأزهر .

فيظن بعض الناس أن المبحث من بنات أفكاره وكد ذهنه وعرق جبينه ، ولو علموا لرجعوا كل شيء إلى أربابه ، وأقروا الأمر فى نصابه . ولسنا ننكر أن عبد القاهر قد ابتكر فى البيان العربى وارتجل فى أبحاثه ، كما لا نجحد أنه فصل بعض ما أجمله العلماء قبله ، وشرح بعض ماقالوه ، ونوع الأمثلة . وأتى بأمداد من الشعر والنثر متوافرة ، ولكنا ننكر أن يكون هو مؤسس فن البلاغة برغم ما يقوله صاحب الطراز ، وعبد القاهر نفسه يقر بأنه أفاد ممن تقدمه ممن كتبوا فى البلاغة والفصاحة ، وينعى على الناس عدم تدبرهم لكلام العلماء وإمعانهم النظر فيه ، حتى أدخلوا الضيم على علم الفصاحة والبلاغة ، فيقول فى دلائل الإعجاز[1] أعلم أنك لا ترى فى الدنيا علما قد جرى الأمر فيه بدئيا وأخيراً على ماجرى عليه فى علم الفصاحة والبلاغة أما البدىء فهو أنك لاترى نوعا من أنواع العلوم إلا إذا تأملت كلام الأولين الذين علموا الناس ، وجدت العبارة فيه أكثر من الإشارة والتصريح أغلب من التلويح ، والأمر فى علم الفصاحة على الضد من ذلك ، فإنك إذا قرأت ما قاله العلماء فيه وجدت جله أو كله رمزا أو وحيا ، وكناية وتعريضاً ، وإيماء إلى الغرض من وجه لايفطن له إلا من غلغل الفكر وأدق النظر ومن يرجع من طبعه إلى ألمعية يقوى معها على الغامض ويصل بها إلى الخفى ، حتى كان بسلا حراما أن تنجلى معانيهم سافرة الأوجه لانقاب لها ، وبادية الصفحة لاحجاب دونها . وأما الأخير فهو أنا لم نر العقلاء قد رضوا من أنفسهم فى شيء من العلوم أن يحفظوا كلاما للأولين « يتدارسونه ويكلم به بعضهم بعضا من غير أن يعرفوا له معنى ويقفوا منه على غرض صحيح ، ويكون عندهم إن يسألوا عنه بيانا له وتفسيرا ، إلا علم الفصاحة ، فإنك ترى طبقات من الناس يتداولون فيما بينهم ألفاظاً للقدماء ، وعبارات من غير أن يعرفوا لها معنى أصلا ، أو يستطيعوا أن يسألوا عنها أو يذكررا لها تفسيراً يصح ، وسنرى أن عبد القاهر قد أسرف فى دعواه أن العلماء لم يتجاوزوا التلميح إلى التصريح والإشارة إلى العبارة فى مسائل البلاغة والفصاحة ، وأنه فى كثير من المباحث لم يزد على ماقالوا إلا فى الأمثلة والشواهد .

وقد عرض الأستاذ أحمد المراغى فى كتابه « بحوث وآراء فى البلاغة » لعبد القاهر : فذكر رأى عبد القاهر فى الفصاحة والبلاغة ، وهل يرجعان إلى اللفظ أو

(١) ص٣٤٩ .

إلى المعنى[1] ثم ذكر أثر عبد القاهر فى بناء البلاغة العربية وقال : « وفى الحق أن كتابيه يعدان أول المؤلفات العلمية فى هذه الفنون ، بما اشتملا عليه من التحقيق العلمى للمسائل التى تناولها فى عرض كلامه ، وبما سلك فيهما من نهج أدبى مقرون بتدقيق منطقى بديع ، مع بقاء الأسلوب الأدبى ظاهراً لم تشبه هجنة ، فلا غرو أن قيل .. إن أول من وضع هذه الفنون عبد القاهر الجرجانى ، كما أن من الحق أن نقول أيضاً : إن عبد القاهر بوضعه هذين الكتابين أوجد علوم البلاغة كاملة فكل من جاء بعده قبس من نور علمه ، ومالم يتعرض له من مسائلها ، وزادوه فيها بعده فهو قشور ، تركها لا يضير الأديب[2] .

وقال فى موضع آخر : وفى الحق أن هذا البيان كان وليد احتكاك العرب والعجم الذين حذقوا لغاتهم واللغة العربية . ونتاجا لازدواج هاتيك اللغات بعضها ببعض . ولم يكن بالعربى البحت الذى أنتجته القرائح العربية الخالصة ، فتاريخ . الأدب حافل بأسماء الأدباء الكتاب الموالى الذين كان يشار إليهم بالبنان فى رق الأدب[3] » .

ويقول عن كتابى عبد القاهر : أسلوبه فيهما يجمع بين الطريقتين : ففيه قوة الجدل المنطقى ، وله المعرفة التامة باصطلاح الفلاسفة والمتكلمين ، إلى الروح الأدبى والقدرة على النقد وصنعة الكلام ، إلا أن أسلوبه فى دلائل الإعجاز أميل إلى طريقة المتكلمين ، بينما تراه فى « أسرار البلاغة » عربى الأسلوب ، وفى تعبيره رونق وطلاوة مع سهولة وجزالة وعذوبة وسلاسة إلى قوة الشكيمة فى الحجاج ، وتمام الآلة فى الجدال ، مع ميل إلى الأسلوب والبسط فيما يريد إثباته من القضايا ، وإحالة للمخاطب على الذوق وإدراك الجمال الفنى بنفسه ، ويصل إلى ما قد وصل إلى إدراكه بعد طول البحث والاختيار[4] » .

---

(١) ص١٠ – ٢٨ المرجع ط١٩٤٠ .

(٢) ص٥٨ المرجع ، ويقول فى موضع آخر عن عبد القاهر : « احيا موات هذا العلم ، وأنشأ فيه نهضة جديدة ، واستعار شيئا من التحقيق العلمى الفلسفى والبحث الفلسفى لإثبات مسائل هذا العلم ، بإسراف حينا واقتصاد حينا آخر ، مع بقاء الصبغة الأدبية سليمة لا يعتورها وهن ولا ضعف (ص٥٠المرجع) .

(٣) ٥٥

(٤) ص ١٢٩و ١٣٠ المرجع .

ويقول الدكتور طه حسين فى مقدمة كتابه نقد النثر ما نصه : « لم تلق « خطابة » ابن سينا ولا « شعره » – وهما شرح وتحليل لفلسفة أرسطو ولآرائه فى الخطابة والشعر ، وقد جعلهما ابن سينا من فنون كتابه « الشفاء » – قبولا لدى الفلاسفة الذين جاءوا من بعده » .

« على أن مجهود ابن سينا لم يكن ليذهب عبثا ، لقد عرب كتاب « الخطابة » لأرسطو – إذا صح هذا التعبير – وجعله فى متناول الفكر العربى ، وبذلك هيأ أسباب التوفيق بين البيانين : العربى ، واليونانى – الذين عاشا متجاورين دون أن يتلاقيا ويتآلفا » .

« وقد تحقق هذا التوفيق فى القرن الخامس على يدى عبد القاهر الجرجاني[1] » .

« صنف عبد القاهر كتابين يعتبران بحق أنفس ما كتب فى البيان العربى هما : أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز » .

« فعندما تقرأ أولهما تكاد تجزم بأن المؤلف قرأ الفصل الذى عقده ابن سينا للعبارة ، وأنه فكر فيه كثيراً ، وحاول أن يدرسه دراسة نقد وتمحيص ، والواقع أنه درس « الحقيقة » و« المجاز » فتبين له أن تصور القدماء للمجاز مضطرب غير مستقيم ، فابتدأ يوضح مبهمه ، ويجلو غامضه ، وقسم المجاز إلى نوعين : لغوى وعقلى ، ثم قسم اللغوى إلى قسمين : أحدهما يقوم على التشبيه وأما الآخر فعبارة عن كل لفظ استعمل مكان لفظ آخر لصلة بينهما ..

وبعد فنحن نعرف مجاز أرسطو الذى يجيز إطلاق أسم الجنس على النوع ، واسم النوع على الجنس ، واسم النوع على نوع آخر ،.فمجاز أرسطو هذا هو مايسميه عبد القاهر « مجازا مرسلا » ، وأما المجاز الذى يقوم على التشبيه والذى يسميه أرسطو « صورة » فيسميه عبد القاهر « استعارة » وهو لفظ كان القدماء يطلقونه على المجاز بكافة أنواعه ولكى يقرر عبد القاهر ما هية هذا فإنه يتعمق فى دراسة المجاز والتشبيه تعمقا لم يسبق إليه ، ولكن من غير أن يخرج بحال عن الحدود التى رسمها أرسطو : أما المجاز العقلى فهو من ابتكار عبد القاهر ويصح أن نسميه المجاز الكلامى لأنك

(١) ص ٢٨ مقدمة نقد النثر للدكتور طه حسين طبعه سنة ١٩٣٩ بالقاهر ة .

إذا قلت مع عبد القاهر « أنبت الربيع البقل » فهذا مجاز ، لأن الربيع لاينبت البقل ، ولكن الذى ينبته هو اللّه تعالى ، وينفق عبد القاهر جهداً غير قليل فى الدفاع عن مجازه هذا وفى تمييزه عن المجاز المعروف ولكن لاشك أن الأساس الذى ينى عليه هذا التمييز محل النظر[1] » .

أما كتاب « دلائل الإعجاز » فيحاول فيه عبد القاهر أن يثبت إعجاز القرآن ، وهو أمر جعله علماء الكلام الغرض من البيان من عهد بعيد ، ولكى يصل عبد القاهر إلى هذه الغاية أيد بحثه بنقض نظريتين قد يمتين :

إحداهما : تجعل جمال الكلام فى اللفظ .

والأخرى : تجعله فى المعنى :

ثم ينتهى به البحث إلى أن الجمال ليس فى اللفظ ولا فى المعنى ، وإنما هو فى نظم الكلام ، أى فى الأسلوب ، ثم يحاول بعد ذلك أن يبين فيم يكون جمال الأسلوب وروعته ، فيدرس الجملة بالتفصيل : منفردة ومتصلة ، ويضطره البحث إلى الكلام على أهمية حروف العطف ، وقيمة الإيجاز والاطناب ، وضرورة مطابقة الكلام لمقتضى الحال . وبذلك يضع أساس علم المعانى المشهور .

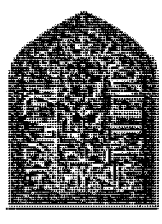
ولا يسع من يقرأ «دلائل الإعجاز» إلا أن يعترف بفضل عبد القاهر وبما أنفق من جهد صادق خصب فى التأليف بين قواعد النحو العربى وبين آراء أرسطو العامة فى الجملة والأسلوب والفصول ، وقد وفق عبد القاهر فيما حاول توفيقا يدعو إلى الإعجاب ، وإذا كان الجاحظ هو واضح أسس البيان العربى حقًا ، فعبد القاهر هو الذى رفع قواعده وأحكم بناءه[2] .

***

---

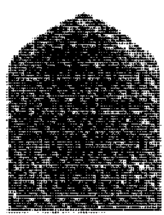
(١) ص٢٩ المرجع السابق .

(٢) ص٣٠ من المرجع نفسه .



الفصل الثالث

الأسلوبية ومصطلح الصياغة



الصياغة والنظم بمعنى واحد ، فإذا قلنا « الصياغة » فإنما نعنى النظم ، وإذا قلنا النظم فإنما نعنى الصياغة ..

ونحن لا نعدو الحق إذا قلنا : إن نظرية عبد القاهر فى النظم كانت نظرية فى الصياغة تحدث عنها ، عندما قال : « ومعلوم ان سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة[1] .

وقد اثار عبد القاهر كثيرا من المسائل الأساسية فى الصياغة :

– كفصاحة الكلمة وخلوها من الغرابة وتنافر الحروف .

– ومسألة مطابقة الكلام للسامعين ، ومتى يحتاج إلى تأكيد ، وكيف تقدم اجزاؤه بعضها على بعض ، ومتى تتأخر ، ومتى تذكر ، ومتى تحذف ، ومتى تعرف ، ومتى تنكر ، ومتى تظهر ، ومتى تضمر .

كل هذه الجوانب يجب أن يعرفها الشاعر ، بل ينبغى أن يحذقها ، إذ يستقر فيها كثير من أسرار الجمال فى الصياغة الأدبية ، ولا بد للشاعر أن يتقنها جميعا ، حتى يؤدى ما يريد أداء مستقيما ، إذا كفلت له كل العناصر الأساسية فى الصياغة الفنية[2] .

وقد كتب عبد القاهر كتابه « أسرار البلاغة » لتحليل الصورة الأدبية ، وبيان منزلتها فى الشعر خاصة ، ودورها فى التأثير النفسى . ففكرة التصوير قد جعلها عبد القاهر أصلا فى أسرار البلاغة .

وعلى هدى ما سبق نقول : إن الصياغة والأسلوب طريقة الأداء ، أو طريقة التعبير التى يسلكها الأديب لتصوير ما فى نفسه . أو لنقله إلى سواه ، بهذه العبارات اللغوية .

---

(١) ٣١٩ النقد التحليلى عند عبد القاهر –د . الصاوى – ١٩٧٩ – الهيئة المصرية العامة للكتاب – فرع الاسكندرية .

(٢) ٣١٨ ، ٣١٩ النقد التحليلى عند عبد القاهر – د .الصاوى – ١٩٧٩ –

أى هو طريقة تأليف الألفاظ للتعبير بها عن المعانى قصد الإيضاح والتأثير[١] .. إنه طريقة التفكير والتصوير .. والتعبير[٢] .

الأسلوب أذن هو طريقة الكاتب أو الشاعر الخاصة فى اختيار الألفاظ وتأليف الكلام[٣] ، أو هو طريقة خلق الفكرة وتوليدها وإبرازها فى الصورة اللفظية المناسبة[٤] ..

وصفات الأسلوب الجامعة : هى الأصالة والتلاؤم والإجازة[٥] أى الإيجاز ..

والأسلوب الفنى يتكون من الصوت والفكرة[٦] ..

وكان فلوبير إمام الصياغة فى فرنسا ، وقال لبعض أصحابه : تقول إننى شديد العناية بصورة الأسلوب، والصورة والفكرة كالجسد والروح هما فى رأيى شىء واحد[٧] .

ويقول بعض النقاد المعاصرين إن الصياغة أو الأسلوب ، أو النظم طبعا ، بمثابة الجسم للتجربة العشرية .

ومن عناصر الصياغة : الخيال ، والموسيقى ، والوحدة الشعرية ، والتناسب ، وتخير الألفاظ تخيرا فنيا[٨] .

والخيال تبدو صوره فى التشبيه ، والمجاز والاستعارة والكناية ، وما إليها[٩] .

ومن عناصر الصياغة عند هؤلاء النقاد المعاصرين الألفاظ وتراكيبها .

---

(١) الأسلوب للشايب – الطبعة السادسة –١٩٦٦ – النهضة المصرية .

(٢) ٤٥ المرجع نفسه .

(٣) ٥٦ دفاع عن البلاغة لأحمد حسن الزيات – مطبعة الرسالة ١٩٤٥ .

(٤) ٦٢ المرجع نفسه .

(٥) ٨١ المرجع نفسه .

(٦) ٧٨ المرجع نفسه .

(٧) ٦٥و٦٦ دفاع عن البلاغة – الزيات – مطبعة الرسالة – عام ١٩٤٥ .

(٨) ٤٥و٤٦ الشعر المعاصرعلى ضوء النقد الحديث للسحرتى – طبعة ١٩٤٨ .

(٩) ٤٦ المرجع السابق .

ويطالب أبو شادى باحترام أصول اللغة وتراثها ، واستيعاب روائعها ، واستلهام أجمل ما فى التراث .

كما يطالب باطلاق نفس الشاعر على سجيتها ..

والتعبير الجيد عن التجربة الصادقة للشاعر هو الشعر الأصيل . والنظم كما شرحهما عبد القاهر هما شيء واحد ، وهو تعليق الكلم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض . وهو ما درسه العرب فى كتبهم النحوية قبل أن يتخذه عبد القاهر أساسا لنظريته فى البلاغة والنقد . والموضوعات التى دخلت فى نظرية النظم ليست جديدة ، وإنما الجدة فيها استغلالها فى تصوير محاسن الكلام وإظهار ما فيه من روعة وتأثير . ولو مضينا نستعرض فكرة النظم لرأينا بذورها فيما كتبه النحاة والبلاغيون ومؤلفو كتب إعجاز القرآن . بل لوجدنا غير العرب يعنون بدراسة ما تشتمل عليه من موضوعات اتخذها عبد القاهر سبيلا للوصول إلى فكرته التى أقام عليها مسألة الإعجاز .

وفى دراسات أرسطو البلاغية والنقدية . حديث عن أجزاء القول . فقد عقد فى كتابه : « فن الشعر » فصلا تكلم فيه على أقسام الكلمة ، والفروق بين أقسامها ، والمقاطع والحروف والأصوات وغيرها من المسائل التى رآها ضرورية فى البلاغة [١] .

وتحدث فى المقالة الثالثة من كتاب « الخطابة »[٢] عن مراعاة الروابط بين الجمل ، والأسلوب المفصل ، والأسلوب المقطع ، وحذف أدوات الوصل والتكرار ، ومعنى ذلك أن أرسطو اتخذ من هذه الموضوعات أساسا فى دراسته للأساليب والتمييز بينها ، ولاسيما أسلوب الخطابة الذى يحتاج إلى عناية كبيرة فى انتقاء الألفاظ ، والربط بينها والوقوف عند بعضها .

وذكر الباحثون أن الهنود عنوا بنظرية النظم . وقد وصلت هذه العناية عندهم إلى مستوى من الدقة والاستقصاء لا يقل عما وصل إليه نقاد الأدب فى البيئات الأخرى . وليس أمامنا من هذه الدراسات ما يوضح فكرة النظم عند الهنود أو

---

(١) فن الشعر ص٥٥ وما بعدها .

(٢) الخطابة ص١٨٥ وما بعدها .

بلاغتهم . سوى ما ذكره الجاحظ فى « البيان والتبيين »[1] عن الصحيفة الهندية وماجاء فيها من أصول تتصل بالخطيب وصفاته وبالأسلوب ، وما ذكر البيرونى فى تاريخ الهند ووصفه للمحاولات البلاغية التى كانت تتصل بقضية الإعجاز فى كتابهم الدينى[2] .

وكانت للنحاة العرب يد طولى فى دراسة الكلام وتحليله ، والوقوف عند الجملة ومايحدث فيها من تقديم وتأخير . أو حذف وذكر ، أو فصل ووصل . ولعل سيبويه من أقدم الذين وقفوا عند هذه الجوانب ، ودرسها بعمق فى فصول كتابه الشهير وأبوابه . وأخذ عنه الآخرون من نحاة وبلاغيين ونقاد أصوله ، وبنوا عليها نظرياتهم . ولكن سيبويه والنحاة لم يسموا هذه البحوث نظما ، وإنما هى قواعد تسير عليها العرب فى كلامها أو إنشائها ، ولا نستطيع ان ننسب إليهم بعد ذلك نظرية النظم التى حاول بعض المعاصرين أن يربطها بهؤلاء النحاة ربطا وثيقا ليجرد البلاغيين وعلى رأسهم عبد القاهر من الأصالة والتجديد ، مع إيماننا بأن الموضوعات التى بنيت عليها هذه الفكرة كانت نحوية محضة ، ولكن البلاغيين استفادوا منها وصوروها خير تصوير .

وإذا أردنا أن نتلمس فكرة النظم . فينبغى أن نتلمسها فى كتب أخرى بعد أن رأينا ارتباطهابكتب النحو . وأقدم اشارة عثرنا عليها فى الكتب العربية عبارة ابن المقفع التى أشار فيها إلى صياغة الكلام . قال : « فإذا خرج الناس من أن يكون لهم عمل ، وأن يقولوا قولا بديعا . فليعلم الواصفون المخبرون أن أحدهم وإن أحسن وأبلغ ليس زائدا على أن يكون كصاحب فصوص وجد ياقوتا وزبرجدا ومرجانا فنظمه قلائد وسموطا وأكاليلا ، ووضع كل فص موضعه وجمع إلى كل لون شبهه مما يزيده بذلك حسنا فسمى بذلك صائغا رقيقا ، وكصاغة الذهب والفضة صنعوا فيهما ما يعجب الناس من الحلى والآنية . وكالنحل وجدت ثمرات أخرجها الله طيبة وسلكت سبلا جعلها الله ذللا . فصار ذلك شفاء وطعاما وشرابا منسوبا إليها مذكورا

---

(١) ج١ ص٨٨ .١٢ -٩٣ .

(٢) المدخل إلى دراسة البلاغة العربية ص٧٧ -٧٨ .

به أمرها وصنعتها . فمن جرى على لسانة كلام يستحسنه أو يستحسن منه فلا يعجبن به أعجاب المخترع المبتدع فإنه إنما اجتباه كما وصفنا -[1] .

وأخذ البلاغيون هذا الكلام وأداروه فى كتاباتهم من غير أن يشيروا إلى أبن المقفع ، فقال الجاحظ : « فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير »[2] ، وكرر عبد القاهر هذا المعنى كثيرا .

وتحدث الجاحظ عن النظم فى كتبه وسمى أحد كتبه « نظم القرآن » . قال : « كما عيت كتابى فى الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه[3] » . وقال : « وفى كتابنا المنزل الذى يدل على إنه صدق ، نظمه البديع الذى لايقدر على مثله العباد مع ماسوى ذلك من الدلائل التى جاء بها من جاء به[4] ، والجاحظ فى هذين النصين وغيرهما يؤمن بأن القرآن معجز بنظمه وما فيه من بلاغة تأسر القلوب ، وقد بنى عليها تصوره للأدب عامة ، ولو أن كتابه « نظم القرآن » بين أيدينا لاستطعنا أن نكشف عن رأيه الواضح فى هذه المسألة لأن النصوص التى نقلت عنه لاتعطى فكرة دقيقة .

ونجد الفكرة تتطور عند أبى سعيد السيرافى ، وتأخذ صورة أكثر جلاء حينما تحدث عن معانى النحو وقال : « معانى النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته ، وبين وضع الحروف فى مواضعها المقتضية لها وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وتوخى الصواب فى ذلك وتجنب الخطأ فى ذلك وان زاغ شيء عن النعت فإنه لا يخلو ان يكون سائغا بالاستعمال النادر والتأويل البعيد . أو مردودا لخروجه عن عادة القوم الجارية على فطرتهم »[5] .

وكان لمسألة إعجاز القرآن أثر فى بلورة فكرة النظم ، وقد ذهب قوم من المتكلمين إلى أن وجه الإعجاز هو ما اشتمل عليه القرآن من النظم الغريب المخالف

---

(١) الادب الصغير – آثار ابن المقفع ص٣١٩ ، ورسائل البلغاء ص٥ –٦ .

(٢) الحيوان ج٣ ص١٣٣ .

(٣) الحيوان ج١ ص٩ .

(٤) الحيوان ج٤ ص٩٠ .

(٥) الإمتاع والمؤانسة ج١ ص١٠٧ ، ومعجم الأدباء ج٣ ص١٠٥ .

لنظم العرب ونثرهم فى مطالعه ومقاطعه وفواصله . وذهبت جماعة منهم إلى أن وجه الإعجاز فى مجموع الأمرين : النظم ، وكونه فى أعلى درجات البلاغة . ولأبى عبد الله محمد بن يزيد الواسطى (-٣٠٦هـ) كتاب فى إعجاز القرآن سماه « إعجاز القرآن فى نظمه وتأليفه » ولا نعرف عنه شيئا مع أن عبد القاهر شرحه مرتين إلا أن الأصل وشرحيه لم يصلا وان كان العنوان يظهر انه عالج مسألة النظم وأقام عليها إعجاز القرآن .

وفى كتب الإعجاز التى وصلت إلينا حديث عن النظم ، ولكنه لا يجلى الصورة ولا يوضح الهدف ، وإنما هى ومضات فى الطريق . سار عليها البلاغيون . فأبو سليمان حمد بن محمد بن ابراهيم الخطابى (-٣٨٨هـ) يرى أن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نُظم التأليف مضمنا أصح المعانى . ويقول إن « عود هذه البلاغة التى تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التى تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص والأشكل به . الذى إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إما تبدل المعنى الذى يكون منه فساد الكلام . وإما ذهاب الرونق الذى يكون معه سقوط البلاغة[1] . ويرى أبو الحسن على بن عيسى الرمانى (-٣٨٦هـ) أن أعلى مرتبة فى حسن البيان ما جمع أسباب الحسن فى العبارة من تعديل النظم . حتى يحسن فى السمع ويسهل على اللسان وتتقبله النفس تقبل البرد »[2] . ويرى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى (-٤٠٣هـ) أن كتاب الله معجز بالنظم . لأن نظمه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد فى كلام العرب ، قال : « فأما شأو نظم القرآن فليس له مثال يحتذى عليه ولا إمام يقتدى به ولا يصح وقوع مثله اتفاقا كما يتفق للشاعر البيت النادر والكلمة الشاردة والمعنى الفذ الغريب والشيء القليل العجيب »[3] . وقال : « ليس الإعجاز فى نفس الحروف . وإنما هو فى نظمها وإحكام وصفها وكونها على وزن ما أتى به النبى - ﷺ - وليس نظمها اكثر من وجودها متقدمة ومتأخرة ومترتبة فى الوجود وليس لها نظم

(١) بيان إعجاز القرآن - ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص٢٦ .

(٢) النكت فى إعجاز القرآن - ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص٩٨ .

(٣) اعجاز القرآن ص١٦٩ .

سواها »[1] وقال عن القرآن : « وهو معجزة الرسول –عليه السلام – دال على نبوته من ثلاثة أوجه : أحدها ما فيه من عجيب النظم وبديع الوصف وانه لا قدرة لأحد من الخلق على تأليف مثله ولا تأليف سورة منه أو آية بقدر سورة[2] .

وكان كلام القاضى عبد الجبار (–٤١٥هـ) أكثر وضوحا حينما رأى أن الفصاحة والبلاغة تقومان على ضم الكلمات وتقارنها قال : « إعلم أن الفصاحة لا تظهر فى افراد الكلام بالضم على طريقة مخصوصة . ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة . وقد يجوز فى هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التى تتناول الضم ، وقد تكون بالإعراب الذى له مدخل فيه ، وقد تكون بالموقع . وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع . لأنه إما أن تعتبر فيه الكلمة أو حركاتها أو موقعها ، ولا بد من هذا الاعتبار فى كل كلمة . ثم لابد من اعتبار مثله فى الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض ، ولك كما يتضح من الجزء السادس عشر من كتابه « المغنى »[3] .

هذا ويجعل البحرانى فى كتابه « أصول البلاغة[4] » من أقسام النظم : المطابقة والمقابلة والمزاوجة فالالتفات والإعتراض والاقتباس والتلميح ، وارسال المثلين ، واللف والنشر والإيهام ، ومراعاة النظير ، والمدح الموجه ، وتجاهل العارف ، وحسن التعليل ، والاغراق فى الصفة ، والسؤال والجواب ، والحذف ، والتعجب .

الصياغة أو النظم عند عبد القاهر :

والصياغة[5] عند عبد القاهر تتفاوت على درجات ، وهى أمارة على البراعة والحذق ، ولها لطائف لا تحصر ..

---

(١) كتاب التمهيد ص١٥١ .

(٢) نكت الانتصار لنقل القرآن ص٥٩ .

(٣) ١٦ ، ١٩٩ المغنى ، وراجع ذلك بتفصيل فى ص٨٧ وما بعدها من كتاب ابو محمد ابو موسى « البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى » طبعة دار الفكر .

(٤) تحقيق د . عبد القادر حسين – ونشر بدارالشروق بالقاهرة .

(٥) ص٣٧ نظريات العلاقات بين عبد القاهر والنقد العربى الحديث – د .أحمد نايل بين – دار الطباعة المحمدية (بدون تاريخ) .

ويقول عبد القاهر :

– « وجملة الأمر إنا ما رأينا فى الدنيا عاقلا اطرح النظم والمحاسن التى هو السبب فيها من الاستعارة والمجاز والكناية والتمثيل وضروب المجاز والإيجاز ، وصد بوجهه عن جميعها ، وجعل الفضل كله ، والمزية أجمعها ، فى سلامة الحروف مما يثقل .. كيف وهو يؤدى إلى السخف والخرج من العقل كما بينا[1] .

فالنظم عند عبد القاهر طبقات وأجناس ، فذلك الذى مضى . وهو توخى معانى النحو فيما بين الكلمة على حسب الأغراض والدواعى ، جنس منه . وهناك جنس آخر ، وطبقة أعلى . فيه إلى جانب معانى النحو التى مرت ، خواص ومزايا اخرى ، ليست من النحو ولا مبنية على وجوهه وفروقه ، تلك هى أن يفتن المتكلم فى صورة النظم والتركيب فيؤلفها من اجزاء متماثلة الصنع ، متشاكلة الصور بحيث تتجلى فى شكل هندسى منتظم ، ووضع متناسب ملتئم ، يستثير الإعجاب ويجتذب القلوب .

وقد عقد الشيخ لهذا الجنس من النظم فصلا عنوانه « فصل فى النظم يتجدد فى الوضع ويدق فيه الصنع[2] . ذكر فيه المزواجة والتمثيل ، والتشبيه مفرقا ومركبا ، والتقسيم مع الجمع ، والطباق والمقابلة . فهذه الأنواع إذا انتظمت فيها الصورة ، واستطاع الناظم البارع ان يراعى فى اجزائها وضعا واحدا ، كانت كما قال الشيخ « النمط العالى ، والباب الأعظم ، والذى لا ترى سلطان المزية يعظم فى شيء كعظمه فيه » .

والشيخ فى هذه الأنواع التى ذكرها ليس مستغربا ، وإنما هو –كعادته – فى معرض التمثيل فحسب ، لأنه يقول « وليس لما شأنه أن يجيء على هذا الوصف حد يحصره ولا قانون يحيط به ، فأنه يجيء على وجوه شتى ، وأنحاء مختلفة » .

فبيت البحترى فى المزاوجة :

إذا ما نهى الناهى فلجَّ بى الهوى اصاخت إلى الواشى فلجَّ بها الهجر

---

(١) ط٤٥٧ الأثل والإعجاز .. تحقيق خفاجى .(١) ص ٧٣ – ٧٦ .
(٢) من ص ٧٣ – ٧٦ .

وبيته الآخر :

إذا احتربت يوما ففاضت دماؤها ⠀⠀ تذكرت القربى ففاضت دموعها

يبديان من جمال الصورة واتحاد الوضع والترتيب ما يملأ النفس إعجابا وروعة . ونحن نستطيع أن نجعل بيت أبي تمام :

أحاولت ارشادى ؟ فعقلى مرشدى ⠀⠀ أو اخترت تأديبى ؟ فدهرى مؤدبى

وبيت البحترى :

شوقى إليك تفيش منه الأدمع ⠀⠀ وجوى إليك تضيق عنه الأضلع

وأنشد عبد القاهر أبيات القضاعى :

فبينا المرء فى علياء أهوى ⠀⠀ ومنحط اتيح له اعتلاء
وبينا نعمة اذ حل بؤسى ⠀⠀ وبؤسى اذ تعقبه ثراء

وجعلها نوعا اخر من دقة النظم واتحاد الوضع ، على أن دقة المقابلة مع حسن التقسيم يظهران فيها جدا . ومما هو فى طبقة هذه الأبيات ، ان لم يكن أعلى ، قول قطرى . يصف الدنيا ويحذر من الغرور بها ،

« مع أن امرا لم يكن منها فى حيرة إلا أعقبته بعدها عبرة ، ولم يلق من سرائها بطنا ، إلا منحته من ضرائها ظهرا ، وحرى إذا اصبحت له منتصرة ، ان تمسى له خاذلة متنكرة ... وإن أنت امر من غضارتها نعما ، ارهفته من نوائبها نفاسا ، ولم يمسى امروء منها فى جناح أمن إلا أصبح منها على قوادم خوف ... »

ففى هذه الفقرة من لطف المقابلة ، ودقة النظم مالا يخفى مكانه من الحسن والروعة . وأقل منه فى ذلك قول البحترى :

فقف مسعدا فيهن إن كنت عاذرا ⠀⠀ وسر مبعدا عنهن إن كنت عاذلا

وقول أبى تمام :

فمصعد من حسن ومصوب ⠀⠀ ومجمع من نعته ومفرق

وإن كانت هذه الأبيات لا تدفع هي الأخرى عن حظ من الجمال ، وحسن التنسيق ، بما فيها من مقابلة ، واتحاد فى الأجزاء لكنها ، خلت من الدلالة على التعاقب بين المعانى المتقابلة ، مما يظهر فى أبيات القضاعى ، وخطبة قطرى ، فى كلمة « بينا » وعبارة « لم يمس .. إلا أصبح » فهى تبعث فى النفس تخيلا ، قوى الأثر ، عظيم الوقع ، فى مبلغ دلالته على السرعة فى الانتقال من حال إلى حال . وكذلك تتبع الشيخ باقى الأنواع التى ذكرها فى هذا الفصل . والتى جعلها الغاية التى لا مطمع وراءها لشاعر او ناثر .

وهذان لونان من النظم الفاخر ، والبلاغة الساحرة . أحدهما ما توخيت فيه معانى النحو وأسراره ، والثانى ماجمع إلى توخى معانى النحو ، حظا من براعة التصوير ،وتناسق التعبير ، ودقة الصنع ، واتحاد الوضع ، وكون جمله تؤلف وحدة متشابكة ، وعبارة منتظمة الشكل متماسكة .

وهناك لون ثالث ، لم ينل شرف واحد من الجنسين السابقين . فلم يحو كثيرا من التصرف البارع فى معانى النحو وخصائصه ، وان كان لم يخل من جملة منه ، ولم يحز شيئا من دقة الصنع ، واتحاد الوضع ، من نحو ما جاء فى المزاوجة وما إليها . قال الشيخ فى هذا الجنس : « وأعلم ان من الكلام ما أنت تعلم إذا تدبرته إن لم يحتج واضعه إلى فكر وروية حتى انتظم ، بل ترى سبيله فى ضم بعضه إلى بعض سبيل من عمد إلى لآل فخرطها على بعض . لايريد فى نضده ذلك أن تجيء له منه هيئة أو صورة معنى لا يحتاج ان تصنع فيه شيئا . غير أن تعطف لفظا على مثله – كقول الجاحظ : « جنبك الله الشبهة ، وعصمك من الحيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة نسبا ، وبين الصدق سببا ، وحبب إليك التثبت ، وزين فى عينك الإنصاف ، واذاقك حلاوة التقوى ، وأشعر قلبك عز الحق ، وأودع صدرك برد اليقين وطرد عنك ذل اليأس ، وعرفك ما فى الباطل من الذلة ، وما فى الجهل من القلة .. فما كان من هذا وشبهه ، لم يجب به فضل إذا وجب إلا بمعناه أو بمتون ألفاظه ، أو ذوق نظمه وتأليفه ، ذلك أنه لا فضيلة حتى ترى فى الأمر مصنعا وحق تجد إلى التغير سبيلا[1] » .

(١) ص ٧٦ – ٧٧ .

هذا كلامه عن مثل هذا النظم ، يرى أن ليس فيه فضل إلا فى معناه أو متون ألفاظه ، وهو حين مدح هذا الكلام فى الأسرار[1] إنما مدحه من جهة براءته من تكلف السجع والموازنة ، مع أنه خطبة الكتاب ، وللخطبة شأنها لدى المؤلفين فى الاحتفال لها بالسجع والموازنة . لأنها تقع من الكاتب موقع المطالع من القصيد .

ونحن مع عبد القاهر فى أن مثل هذا النظم ساذج ، وان التصرف فى معانى النحو فيه ليس من طبقة التصرف فى مثل قول الصولى فى ابياته السابقة . فلو اذنبا دهر وانكر صاحب ، وان صنعة النظم فيه ليست من طراز الصنعة الدقيقة المتحدة الوضع ، كالمزاوجة والمقابلة . ولكن فيه مع سذاجته فى التصرف النحوى ، تناسبا وتلاؤما بين معانى الجمل ، وترتيبا واتساقا فى الفكرة ، فالصلة ظاهرة بين تجنب الشبهة والعصمة من الحيرة ، ثم بين هذين وبين المعرفة والتثبت ، وهكذا بقية الجمل . ثم فيه كذلك جمال الألفاظ ورشاقتها وبراءتها من التكلف والتصنع ، مع موافقتها للمعانى التى جاءت لها ، ووقوع كل لفظ منها فى موقعه ، وحيث يطلبه المعنى . حتى لو أردت أن تغير . فتضع لفظاً مكان صاحبه . لاختل المعنى ، وذهب حسنه « فالتقوى » تلائمها « الحلاوة » ولا تصلح لهما إلا « اذاق » ، و« الحق » يناسبه « العزة » ولا يجعل معها أبلغ كلمة « أشعر » للطفها فى الدلالة على الهيبة ، والإشعار بالجلالة والقوة ، وهكذا « برد اليقين » و « ذل اليأس » وما إليها من كلام الجاحظ .

نعم ، فى مثل كلمة الجاحظ جمال كثير . كالذى أبناه ، ولكن صنعة النظم فيه أقل من الصنعة التى هناك ، ومجهود الناظم فى نظمه أضعف من ذلك المجهود ، وهذا بين ظاهر . ولكن هل يفقد هذا النظم الساذج حظه من الروعة والتأثير ؟ ، وهل تنزل درجته فى البلاغة عن ذلك النظم الدقيق الصنع ؟ .

ظاهر كلام عبد القاهر على ذلك . إذ يرى أن لا فضيلة حتى ترى فى الأمر مصنعا يدق النظر فيه ، ويصعب الوصول إليه ، ويرى الشيخ نوار أن عبد القاهر قد بالغ هنا وهضم هذا النظم حقه ، فهو نظم بليغ إلا أن بلاغته أقل من بلاغة ذلك النظم الدقيق ، والبلاغة درجات كثيرة[2] .

---

(١) ص ٦ ، ٧ .

(٢) مذكرة النظم ص٣٥ – ٣٧ .

أما نحن فنقول . إن مثل قول الجاحظ لا يقل بلاغة وروعة عن ذلك النظم السابق ، وأن قل عنه فى دقة الصنع وكثرة التصرف ، وفرق كبير بين درجات النظم ودرجات البلاغة على أن مرجع البلاغة إلى التأثير ، وأصابة الغرض ، وذلك كما ينشأ عن براعة النظم ودقة الصنع ، يجيء بحسن الاستعارة وروعتها ، ورشاقة الألفاظ وحلاوتها ، وبكثرة مائها ، وصفاء ديباجتها ، ولطف مواقعها وحسن دلالتها .

ألا وإن للسذاجة حظها من القبول والحلاوة ، وأن للبساطة موقعها وأثرها فى القلوب ولدى الطباع ، إذا أصيب بها موضعها وأحسن لها ما يلائمها ، وهو حظ لايقل عن حظ النظم الدقيق ، والصنعة العجيبة . وذلك شأن المصنوعات التى اكثر الشيخ من القياس عليها ، ترى منها ما قد يكون جماله وظرفه فى قلة تركيبه ، وسذاجة تأليفه ، وبعده عن كثرة الصنعة والتفنن ، ومنها ما يكون شرفه وفضله فى دقة تركيبه ، وكثرة التصرف فى اجزائه وصوره ، ولكل من هذيه مجال ، وحظ مستقل من الجمال ، ولو أنك أحلت فجعلت كلاً فى صورة صاحبه ، لربما ضاع الجمال منهما معا ، وسقطت قيمتهما فى آن واحد ... وهكذا المعانى وصورها ، منها مالا ينقاد لدقيق الصنعة وكثرة التصرف . فلو أكره عليها ذهب رواؤه وغاض ماؤه ، لأن طبيعتها لا تقبل التركيب ، ولا تبدى عن حسنها إلا مع السذاجة ، ولو أنك قلت للشيخ عبر – وهو القدير على التعبير – عن معانى الجاحظ بعبارة فيها من دقيق الصنع مافى المزاوجة أو التقسيم أو المقابلة ، وسائر فنون الصنعة الفاخرة لخانه التوفيق ، وجاءت له فى وضع متكلف لا يحسن العبارة عن المعنى المراد .

نعم ، المجهود فى الأول أشق ، والصنعة فيه أدق ، ولكن المجهود والصنعة شيء ، والبلاغة والطلاوة شيء آخر .

فالأسلوب الذى لم يرق عبد القاهر ليحتاج إلى كثير من المهارة والدقة فى حسن اختيار اللفظ ، وصقل الأسلوب ، وربط المعانى وهى مهمة لا يسلم عليها إلا أرباب الطبع السليم ، والحس اللطيف .

والقرآن الكريم أصدق شاهد فى هذه القضية ، فأنه فى أكثر سوره وآياته ، لايعدل بهذه الطريقة شيئا . فيعرض المعانى فى صورة طلقة سلسلة، وعبارات سهلة مطبوعة

ليس فيها من كثرة الصنع ودقة التراكيب شيء ، فتجيء وهي الغاية في الرشاقة وخفة الروح ، وترى الطرب بها يهز الأعطاف ويسحر الألباب .

وأكبر الظن أن الذين قالوا بتفاوت بلاغة القرآن ، وأن منه ما يعلو بعضه على بعض ، وان كان الجميع معجزا ، إنما تأثروا برأى الشيخ في قول الجاحظ وما يشبهه ، وإنهم رأوا فى بعض آى القرآن وسوره نظما لم يعتمد أكثر من التعاطف ، ونسق المفردات والجمل . نسقا فقالوا إن هذا النظم أقل بلاغة مما اعتمد الدقة والتفنن في التأليف والنظم ، ومن العجب أن هذا القول يكاد يلقى الإجماع عند علماء البلاغة .

ونحن نخالف فى ذلك أشد الخلاف ، ونرى أن بلاغة القرآن فى مستوى واحد وفى درجة سواء ، وان ما جاء منه فى معرض التعاطف والنسق ، لا يقل بلاغة فى معناه وموقعه وفى الغرض الذى سيق له . عن ذلك الذى جاء دقيق النظم ، عجيب الصنع مفتن الأسلوب ، وأن الأول عليه من الإشراق والبهجة ، ومن الرونق والبهاء مالا يقل بلاغة وسحرا عن الثانى وافتنانه . نعم لو قالوا إن القرآن درجات فى الصياغة والنظم . لقلنا : صدقوا وأصابوا ولما استطعنا أن ننكر عليهم ذلك لانه ظاهر مكشوف . فاما التفاوت فى البلاغة بناء على التفاوت فى النظم . فلا ، لان البلاغة كما قلنا ليست هى النظم وحده حتى تتفاوت بتفاوته ، وتجيء درجاتها وفق درجاته ، وإنما دقة النظم عنصر من عناصرها ، ولها غيره عناصر أخرى . كما سبق بيانه . لاتقل عنه شأنا فى الحسن وكثرة الرونق ، وهزا القلوب وعطف الأسماع ، وخذ مثلا . قول الله تعالى فى سورة النبأ : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا * وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا * وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا * لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾(١) . فمن ذا الذى يستطيع أن يقول فى هذا النظم إنه أقل بلاغة من قوله تعالى فى سورة الليل ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ لان الأول خال من الصنعة التى فى الثانى ، وأنه لم يحو ما حوى

---

(١) الآيات ٦ – ١٦ (٣)صـ ٣١٠ .

(٢) الآيات ٥ – ١٠ .

من رعاية التعادل بين الشرطين ، ودقة التقابل بين اجزاء المعنيين ، نعم ، لاينبض أحد بهذا القول . إلا إذا حسب البلاغة تقاس بجهاز آلى يتحسس صور التراكيب ومبلغ التصرف فى اجزائها . فأما إذا كان مع الناس فى ان مقياس البلاغة هو الذوق والاريحية ، وماغشى الكلام من الرونق والطلاوة ومن القبول والحلاوة فلا .

والمثل فى هذا الشأن – ولله المثل الأعلى – ما قاله القاضى الجرجانى فى الوساطة[1] : « وقد ترى الصورة تستكمل شرائط الحسن ، وتستوفى أوصاف الكمال ، وتذهب فى الافق كل مذهب ، وتقف من التمام بكل طريق ، ثم تجد آخرى دونها فى انتظام المحاسن والتئام الخلقة وتناصف الاجزاء وتقابل الأقسام ، وهى أحظى بالحلاوة وأدنى إلى القبول ، واعلق بالنفس ، وأسرع ممازجة للقلب . ولو قيل لك : كيف صارت هذه الصورة – وهى مقصورة عن الأولى فى الأحكام والصنعة ، وفى الترتيب والصيغة ، وفيما يجمع أوصاف الكمال ، وينتظم أسباب الاختيار – احلى وارشق واحظى وأوقع . لاقمت السائل مقام المتعنت المتجانف ، ورددته رد المستبهم الجاهل ، وكذلك منظومه ومنثوره ومجمله ومفصله ... »

ورحم الله القاضى الجرجانى وأهل الذوق جميعا معه ، فلقد أصاب هنا . ثم اصاب . وكذلك وقع الآمدى فى الموازنة حيث وقع القاضى الجرجانى ورمى فأصاب[2] . وهكذا تلتقى نظرات الطبع ولفتات الحس . ومن هنا ندرك السر فى ترديد الأول عن القرآن : « والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة » وانه لم يقل : والله انه لعجيب الصنع غريب النسج .

ثم نعود فنقول .. هما مذهبان فى صياغة الكلام ونظمه . لا يدفع أحدهما الآخر عن فضله ، ولا يزاحمه فى مكانه وشرفه ، ولا يغض قدر احدهما من قدر صاحبه ، لان لكل منهما طبعه وخصائصه ، ومجالا قد انفرد به ، وجاء على خطه من البلاغة والجمال .

فمن المعانى ما يكون الترابط بينها قائما على التقابل والتضاد ، أو التسبب والترتيب . كالشرط والجزاء ، أو يكون بعضها مقدمة للآخر ، أو قسيما له ، أو

---

(١) ص.٣١ الموازنة للآمدى طبعة صبيح .

(٢) ص ١٧٧ الموازنة للآمدى طبعة صبيح

دليلا عليه أو شبيها به ، فهنا تجد الصنعة سبيلها ، ويتيسر للمؤلف الحاذق . أن يتفوق فى التصوير ، ويتلطف فى التأليف ، ويضع الأجزاء وضعا متحدا ، وينسقها تنسيقا بديعا . بحيث تجد منها صورة متحدة الوضع ، دقيقة الصنع ، كالمزاوجة والمقابلة ، وما إليهما .

ومن المعانى ما يكون الترابط بينها على غير هذا السبيل ، ولا تكون صلاتها من هذا القبيل ، فلا يزيد الأمر فيها على أن اجتمعت حول غرض واحد ، والتقت فى جهة قصد إليها النظم ، كتعداد نعمة أو تنسيق أوصاف أو ترتيب قصص ، فيكون عمل المؤلف حينئذ فى ترتيب المعانى ، ورعاية التناسب بين الأول منها والثانى ، وان يجمع كلا إلى شكله ، ويضعه فى مكانه . وأن يختار لكل معنى ما يطلبه من اللفظ وما يلائمه من العبارة فى سهولة ويسر ، وتناسب نغم ... فإذا وفق لاصابة ذلك كله ، فقد أتى بما شئت من جمال واراك صورة السحر الحلال . وجاءت البلاغة هنا تفاخر تلك البلاغة وتباهيها وتجلس على مثل عرشها وتساميها .

وأذن ليس فى القرآن ما يعلو بعضه بعضا فى البلاغة ، وإنما فيه ما يفترق بعضه عن بعض فى صورة النظم والتأليف . تبعا لطبيعة المعنى والغرض ، وكل فى الصورة التى ليس وراءها غاية فى حسن العرض ، وجمال النسق وروعة الأداء ، وقوة التأثير .

فإن سأل سائل : إذا كان المذهبان فيما ترى فى درجة من البلاغة سواء . فما بال الشيخ يعلى من قيمة النظم الدقيق الصنع ، ويجعل ذلك الثانى أقل منه فى المكانة والفضل ؟ فالجواب . إن الشيخ ينظر إلى درجات النظم ، ومجهود الناظم ومبلغ قدرته وبراعته . وليس من مخالف فى صحة هذا النظر من تلك الجهة . وأن النظم الدقيق طريقة اوعر . والحذق فيه أظهر ، بحيث لا يتأتى لكل قائل ولا يرتاض لكل ناظم ، فهو كما قال الشيخ « شأو قد تحسر دونه العناق ، وغاية يعى من قبلها المذاكى القرح » فأما النظم الآخر ، وهو ما كان فى مثل قول الجاحظ فإن الخطب فيه أسهل والمسلك إليه أقرب ، وليس الاحتفال له والاحتيال عليه من نوع ما يكون هناك . وهذا كما قلنا . شيء يرجع لطبيعة المعنى ومادته ، فليس يضير هذا الثانى أن يكون سمحا طيعا وسهلا لينا ، ولا يرفع من شأن الأول أن يكون صعبا أبيا ، وجموحا . وحظهما من الحسن والحلاوة . لان ذلك مرده إلى حظ كل منهما من القبول

والتأثير ، ودرجته من الصفاء والبهاء ومقدار شوطه فى السفارة عن المعنى ، والتجلية عن الغرض ، وتلك هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وهم قد جعلوها البلاغة . بل وجعلوا درجة الكلام فى البلاغة على قدر رعايتها والتوفيق فى اصابتها .

ذلك ما نرى فى تفاوت أساليب القرآن . ولسنا نحيل فى ذلك على شيء سوى الذوق وصحة الطبع . وكتاب الله بين يديك ، فتصفح منه ما شئت وستراه ينتقل بك من نظم إلى نظم ، ومن ديباجة إلى ديباجة ، ويخرج بك من فن إلى فن فسائل نفسك ، واستشهد حسك . هل ترى فى بعض ذلك من فتور ؟ أو تفاوتا فى القوة والتأثير ؟ وحل تحس لبعضه طغيانا على مشاعرك لست تحس مثله لبعضه الآخر ؟ لم إذن روعة التأثير سواء ، وسرعة ممازجة القلب بمقدار ؟

وخلاصة الرأى . أن درجات النظم غير درجات البلاغة ، وان النظم الدقيق الصنع لايرجح فى ميزان البلاغة عن النظم الساذج إذا حسن لفظه ، واتسق معناه ، وأصاب موضعه .

على ان مفهوم النظم فى عصر عبد القاهر لم يكن قد استقر وتحددت دلالته ، وإنما كان يستعمل استعمالات غامضة ومضطربة ، ظلت معها دلالته مائعة مختلطة .

« والنظم » هو محور كتاب عبد القاهر « دلائل الإعجار » ومناط بحثه — وهو جوهر نظريته فى الإعجاز وفى الخلق الأدبى على السواء .

لذا أخذ — منذ البداية — يرسى مفهوم « النظم » — ويحدد ، بما يقطع الشركة فيه ، وينفى اللبس عنه .

« ومما يجب إحكامه . الفرق بين قولنا : حروف منظومة ، وكلم منظومة . وذلك أن نظم الحروف هو : تواليها فى النطق وليس نظمها بمقتضى عن معنى ، ولا الناظم لها بمقتف فى ذلك رسما من العقل ، اقتضى أن يتحرى فى نظمها ما تحراه » .

وأما نظم الكلم فليس الأ مر فيه كذلك ، لأنك تقتفى فى نظمها آثار المعانى وترتيبها على حسب ترتيب المعانى فى النفس .

« فهو إذا نظم يعتبر فيه حال النظوم بعضه مع بعض ، وليس النظم الذى معناه : ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق » .

معنيان للنظم : أحدهما ينصب على نظم الحروف فى الكلم ، والآخر على نظم الكلام فى الجمل والعبارات والأول غير معتبر هنا لأمور :

* إن « النظم » الذى يتحدث عنه — فى مقام الحديث عن الفصاحة والبلاغة نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض ولا كذلك نظم الحروف .

* وإنه لا حال للفظة غيرها يعتبر فى نظمها إذا أنت عزلتها عن دلالتها ، وصارت مجرد صوت .

* وإنه لو كان النظم يقصد به إلى اللفظ نفسه ، بحيث يصبح توالى الألفاظ فى النطق نظما ، لكان ينبغى الا يختلف حال اثنين فى العلم بحسن النظم أو غير الحسن فيه ، لانهما يحسان بتوالى الألفاظ فى النطق احساسا واحدا ولا يعرف أحدهما فى ذلك شيئا يجهله الآخر .

* وأوضح من ذلك كله : أن النظم الذى يتواصفه البلغاء ، وتتفاضل مراتب البلاغة من أجله : صنعة يستعان عليها بالفكرة لا محالة : وإذا كانت مما يستعان عليه بالفكرة ، ويستخرج بالروية ، فينبغى أن ينظر فى الفكر بماذا تلبس : أبا لمعانى أم بالألفاظ ، فأى شيء وجدته الذى تلبس به فكرك من بين المعانى والألفاظ . فهو الذى تحدث فيه صنعتك ، وتقع فيه صياغتك ونظرك وتصويرك ، فمحال ان تفكر فى شيء ، وأنت لا تصنع فيه شيئا ، وإنما تصنع فى غيره ، لو جاز ذلك لجاز أن يفكر البناء فى الغزل ليجعل فكره فيه وصلة أن يصنع من الاخر ، وهو من الإحالة المفرطة : »[1] .

النظم عنده هو : ترتيب الالفاظ فى النطق على حسب ترتيب المعانى فى النفس ، فهو ترتيب مقتضى عن معنى : يجرى أولا فى المعانى ، ثم ترتب الألفاظ فى النطق على وفقها .

---

(١) دلائل الإعجاز ص٤٠ .

وإذا « فلانظم ولا ترتيب فى الكلم حتى يعلق بعضها ببعض ، وينبنى بعضها على بعض ، ونجعل هذا ، بسبب من تلك[1] » .

إذا بدأت الكلمة تتحدد ، وتخرج عن الاشتراك ، واتصل الحديث عن « النظم » بالحديث عن التعليق بين الكلم ، فما التعليق وما فحواه ؟

« لامحصول له غير ان تعمد إلى اسم فتجعله فاعلا لفعل أو مفعولا ، أو تعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبرا عن الآخر : أو تتبع الإسم أسما على أن يكون الثانى صفة للأول . أو تأكيدا له أو بدلا منه ، أو تجىء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون صفة أو حالا أو تمييزا ، أو تتوخى فى كلام هو لاثبات معنى أن يصير نفيا أو استفهاما أو تمنيا ، فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك .

أو تريد فى فعلين أن تجعل أحدهما شرطا فى الآخر . فتجىء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى . أو بعد اسم من الاسماء التى ضمنت معنى ذلك الحرف . وعلى هذا القياس »[2] :

الأن يخرج عبد القاهر من الإجمال – فى حديث الفصاحة – إلى التفصيل ، كما شرط لكنه التفصيل الذى يدل على الوجه ، ويكشف عن لب الفكرة ، ويفتح الطريق لمتابعتها .

وإذا كان هذا القدر من شرح « التعليق » الذى هو جوهر « النظم » يبرز لنا علاقة ما بين « النظم » أو بين تركيب النحوى للجمل ، ومابين نظم البيانى لها ، فليس ذلك وضعا لليد على الخصائص وحدها . واحدة واحدة كما قطع على نفسه .

« واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الموضع الذى يقتضيه علم النحو : وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التى نهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التى رسمت لك فلا تخل بشيء منها[3] .

---

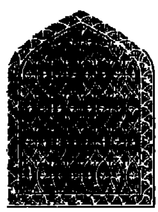
(١) دلائل الإعجاز ص ٤٥ .

(٢) دلائل الإعجاز ص٤٥ .

(٣) دلائل الإعجاز ص٦٤ .

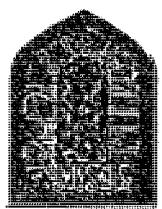
« إنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر فى وجوه كل باب وفروقه (لاحظ أسلوب القصر) ، فينظر فى الخبر إلى الوجوه التى تراها فى : زيد منطلق ، وزيد ينطلق ، وينطلق زيد ، وزيد المنطلق ، والمنطلق زيد ، وزيد هو المنطلق ، وزيد هو منطلق .

***



الفصل الرابع

النظم والصياغة فى البلاغة العربية



النظم قلما يخطىء العربى الأصيل فى مراعاة طريقه ولكن المحدثين والمولدين زحف عليهم الخطأ من كل مكان ، وخاصة لشدة اختلاط الألسنة ، وامتزاج الأجناس .

ومن ثم بدأ يظهر فساد الأذواق عند المحدثين والمولدين واضحا ، كما بدأت الألسنة العربية يدب إليها اللحن والخطأ بتأثير العدوى وفساد الملكات .

وأدى هذا إلى الاهتمام بوضع قواعد البلاغة والبيان ، كما وضعت ضوابط اللغة .

وصاحب نشأة قواعد البلاغة . وضع أصول للنقد الأدبى على يدى قدامة بن جعفر وغيره .

ويروى الجاحظ أن يحيى بن خالد البرمكى اجتلب بعض الاطباء من الهند ، وكان فيهم بهلة الهندى ، فسأله بعض من فى المجلس : ما البلاغة عند أهل الهند ؟ فقال : عندنا فى ذلك صحيفة مكتوبة ، لا أحسن ترجمتها لك ، ولم اعالج هذه الصناعة ، فاثق من نفسى بالقيام بخصائصها وتلخيص لطائفها . قال أبو الأشعث . فلقيت بتلك الصحيفة التراجمة فإذا فيها « أول البلاغة اجتماع الة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش قليل الحظ ، لايكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السوقة ..[1] » .

ولقد نسبوا إلى « بزرجمهر » الحكيم المشهور كلمة فيها كثير من أصول البلاغة ، وذلك قوله : « إن فضائل الكلام خمس ، إن نقص منها فضيلة واحدة سقط فضل سائرها ، وهى ان يكون الكلام صدقا ، وان يوقع موقع الانتفاع به ، وان يتكلم به فى حينه ، وأن يحسن تأليفه ، وان يستعمل منه مقدار الحاجة . ورذائله بالضد من ذلك[2] . »

وهذه الروافد لا تغنى من الحق شيئا ، والحق ان العقل العربى بمساعدة الذوق والموهبة والملكة بدأ يضع القواعد الأولى لعلوم البيان أو البلاغة وأخذت هذه القواعد تتدرج نحو الكمال العملى شيئا فشيئا بمرور الأيام ، ومداومة البحث فى كل جديد من شأن البلاغة وقواعدها .

---

(١) البيان والتبيين ج١ ص٧٨ ، ٧٩ .

(٢) الموازنة ص١٨٣ .

وهناك ادعاء . إن البلاغة العربية عدت على بلاغة اليونان وأبوابها ، واقسامها حتى امثلتها ، هكذا .

كتب الدكتور طه حسين مقدمة عن البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر ، قدم بها لكتاب « البيان » أو كما يسمونه « نقد النثر » الذى يزعمون انه لقدامه بن جعفر وهو لابن وهب ، فأثبت فى هذه المقدمة ان : الهيلينية اثرت فى البيان العربى عن طريقين : طريق غير مباشر ، بما افاد المتكلمون الذين أسهموا فى نشأة البيان ، من منطق وفلسفة يونانية ، وطريق مباشر : بترجمة كتاب « الخطابة » لارسطو على يد اسحاق بن حنين المتوفى سنة ٢٩٨هـ . ثم انتهى من ذلك إلى قوله : « واذن لايكون ارسطو المعلم الأول للمسلمين فى الفلسفة وحدها ، ولكنه إلى جانب ذلك معلمهم الأول فى علم البيان[1] » .

وقد سارت فى هذا المجال الدكتورة سهير القلماوى فى صدر كتابها « المحاكاة » ، كما تأثر بهذا الرأى الكثير من تلامذة الدكتور طه حسين .

ونحن لا نستطيع أن ننكر أن الفلسفة والمنطق فى بيئة المتكلمين قد تركا أثرهما فى البيان الذى نشأ فى تلك البيئة ، بل أثبتنا ذلك فعلا فى حديثنا عن مدرسة المتكلمين ، وإنما الذى يعنينا هو الطريق المباشر ، وهو كتاب . الخطابة لارسطو ، وقد يكون فى الذى قدمناه فى نشأة البلاغة ما يدفع هذا القول أبلغ دفع ، لأننا قد وقفنا على مقدار الشوط الذى بلغته البلاغة فى عهد الجاحظ وابن قتيبة ، اعنى قبل ان تصل إلى كتاب الخطابة الذئ ترجمه اسحاق بن حنين .

على ان الفترة التى توفى فيها اسحاق بن حنين وهى سنة ٢٩٨هـ هى التى وضع فيها ابن المعتز كتابه « البديع » وان هذا الكتاب – وان لم يطلع عليه – فيه وفى كتاب معاصره قدامة بن جعفر ، أثر ظاهر للفصل الثالث من كتاب الخطابة أو قسم العبارة منه ، وأنّ تصور هؤلاء المؤلفين من العرب للتشبيه ، والمجاز والمقابلة ، ووزن الكلام والفصول قريب مما تجده فى المواضع المذكورة من كتاب الخطابة ، نعم أنهم

---

(١) ص٣١ مقدمة نقد النثر بقلم د . طه حسين .

تحاشوا ان ينقلوا عن المعلم الأول جميع الأمثلة التى كان يمثل بها ، لا لشيء اكثر من أنهم لم يفهموا هذه الأمثلة ، إلا مثال التشبيه والمجاز[1] .

ولم يكن أبن المعتز فى كتابه « البديع » متأثرا بكتاب أرسطو ، وليس فيه ظل له ، بل ان ما سماه ارسطو مجازا اسماه ابن المعتز استعارة كما أسماه قبله الجاحظ وابن قتيبة ، لان كلمة مجاز . كانت أعم من الاستعارة وغيرها كما رأينا قبل .

قالوا إن الاخطل دخل على معاوية وقال له : يا أمير المؤمنين ، انى امتدحتك بابيات فاسمعها ، فقال له معاوية : إن كنت شبهتنى بالأسد والحية والصقر ، فلا حاجة لى بها ، وإن كنت قلت كما قالت الخنساء فى أخيها صخر :

فما بلغ المهدون للناس مدحه وان اطنبوا إلا الذى فيك أفضل
ومابلغت كف امرىء متناولا إلى المجد إلا والذى نلت أطول

فأنشد ، فقال الأخطل : والله لقد أحسنت ولقد قلت فيك بيتين ، ماهما بدونهما ، ثم أنشد :

إذا مت مات العرف وانقطع الندى فلم يبق إلا من قليل صرد
وردت اكف السائلين وأمسكوا عن الدين والدنيا ، بخلف مجدد

فإذا كان العرب قد شبهوا بالأسد حتى ابتذل على أيام معاوية ، فكيف يستكثر على المؤلفين العرب ، وهم يؤلفون فى بلاغة العرب ، ويستشهدون بشعر العرب ، ان يشبهوا بالأسد ؟ وكيف تكون امثلتهم اذا شبهوا به منقولة عن ارسطو ؟ و لم كل هذا الاسراف .

تأثر قدامة فى « نقد الشعر » بمنطق أرسطو وفلسفته ، وربما يكون قد تأثر بخطابته ايضا ، وذلك واضح فى تعريفه للشعر ، وفى حصر المعانى الشعرية ، وفى الفضائل الأربع ، وفى تلك الطريقة التى سلكها فى التقسيم والاستقراء ، ولكن هل سلم له ذلك ؟ وهل رضيت بيئة الأدب العربى والبلاغة العربية عن هذه اليونانية التى

(١) ص ١١ ، ١٢ من مقدمته .

سيطرت عليه ؟ وهل تأثر احد من هذه البيئة بما قال قدامة ؟

لقد اجاب الدكتور نفسه على هذه الأسئلة التى فى تلك المقدمة منها : اذ قال فيها مرتين : ان ادباء العرب لم يعفوا كتاب قدامة من شديد استنكارهم ، وعظيم سخطهم[١] .

ونحن نقول : إن هذا الكتاب – اعنى نقد الشعر – لقى ثورة عامة من مختلف البيئات ، ويكفى ان نذكر ان الآمدى ألف كتابا مستقلا ، تتبع فيه اغلاط قدامة فى هذا الكتاب[٢] ، وانه مع ذلك ناقشه فى كتاب الموازنة مرات[٣] .

وكذلك ناقشه العسكرى فى الصناعتين ، والخفاجى فى سر الفصاحة[٤] ،

اما « نقد النثر » وهو المحاولة الثانية لسيطرة الهيلينية على البيان العربى « فإنه أبعد ما يكون عن قدامة ، ولست ادرى ابدا . كيف يثور الأدباء على كتاب نقد الشعر ، مع تفاهة ما فيه من فلسفة ومنطق ، ثم يعفون « نقد النثر » – لوصح أنه لقدامة – من ثورة كبرى على ما فيه من منطق وفلسفة لا بل ليس فيه المنطق والفلسفة فحسب ، وإنما تمثّل فيه كل علم ، من نحو واشتقاق وأصول وكلام ، واخلاق وأدب بحث ومناظرة ، وكل ما يتصل بالإبانة عما فى النفس بمختلف صورها ، فقد حشد فيه ذلك كله تحت عنوان « البيان » .

وأعجب من هذا كله انا لم نجد اشارة ما إلى هذا الكتاب ، لا من معاصرى قدامة ، ولا من المتأخرين عنه بنحو قرن ونصف ، ممن ثاروا على « نقد الشعر » فكيف يصح مع هذا ان يكون الكتاب لقدامة ، ثم يغمض هؤلاء جميعا اعينهم عنه ، وعما فيه . فلا يذكرونه ولا يشيرون إليه ؟ ذلك مالا يكون .

واعجب مما مضى جميعه ، ان يرى الدكتور طه حسين فى هذا الكتاب اثراً بينا لكتاب ارسطو فى البلاغة . مع ان مؤلف الكتاب ينص فيه على ان الاستعارة والتشبيه

---

(١) ص ١١ ، ١٩ .

(٢) ص ١٢٥ من الموازنة .

(٣) ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٤) الصناعتين ص ١٢٠ ، ١٢١ وسر الفصاحة ص ٢٥٠ .

واللحن (الكناية والتعريض) والرمز والوحى والأمثال . خاصة بالعرب ولغتهم[1] فيكف يقول ذلك فى الوقت الذى ينقل فيه عن الهيلينية أو يتأثر بها ؟

ثم لا صلة بحال بين حديث الاستعارة فى نقد الشعر ، وحديثها فى نقد النثر[2] وقد اثبت البحث ان الكتاب هو لابن وهب . وليس لقدامة وان اسمه : « البرهان »

ويقول الدكتور طه حسين : إن حظ قدامه فى نقد النثر لدى ادباء العرب كان كحظه لديهم فى نقد الشعر فى ان لم يرتضه احد منهم ، ولم يتأثر به كاتب أو ناقد[3] .

وإذا كان حظ الكتابين لدى ادباء العرب هذا الإهمال ، فاين اذن تلك الغارة أو السيطرة التى تصورها الدكتور طه وصورها من الهيلينية على البيان العربى ؟ واذ قد اعترف بأن الكتابين ، الموثوق بأنهما لقدامة . والمدعى انهما له ، لم يؤثرا فى احد من أدباء العرب ، فاننا نبنى على هذا الاعتراف وحده أن البيان العربى ظل عربيا فى تدرجه ونمائه ، كما كان عربيا فى نشأته وأوله ، وأنه لم يكن عالة على بيان اليونان ولا ناقلا عن ارسطو ، اللهم إلا بعد القرن الخامس ، أعنى بعد ان كتب الخفاجى وعبد القاهر ما كتبا فى البيان العربى . وذلك هو منطق التاريخ الصحيح ، ومنطق العقل المنصف .

هذا ولو اراد باحث ان يقسم البحث تقسيما جديدا لكان خير طريق يبلغ به هذه الغاية ان يقسم البلاغة قسمين :

الأول النظم :

وهو خصائص التراكيب فى افادة المعانى والاغراض ، أو هو – كما يقول الشيخ عبد القاهر –توخى معانى النحو ، ومباحثه وهى التى عرفت فى العصر الثانى « بعلم المعانى » .

---

(١) ص ٥٢ .

(٢) ص ٦٤ من نقد النثر ، ص ١٠٥ من نقد الشعر .

(٣) ص ٢٣ مقدمة نقد النثر .

الثانى البديع :

وهو فى عرف العصر الأول كل شيء مستظرف فى الكلام من استعارة وتشبيه ، وكناية وتمثيل وسجع وجناس وتقسيم وطباق ، وهو ما قسمه المتأخرون إلى بيان وبديع .

وقد تحدث علماء الأدب واللغة عن مسائل كثيرة فى الصياغة والنظم ، فسيبويه فى « الكتاب » يتكلم عن بعض مسائل فى النظم وكذلك فعل الجاحظ وابن قتيبة وقدامة والآمدى والقاضى الجرجانى والباقلانى فى « إعجاز القرآن » ، وابن رشيق فى العمدة وابن شرف القيروانى .. وغيرهم .

وهكذا رأينا أن المدرسة القرآنية تعرضت لكثير من أبواب النظم والصياغة وان ابا عبيدة والجاحظ وابن قتيبة تكلموا فى الحذف والذكر والتقديم والتأخير ، والايجاز والإطناب ، ولكنا نقول هنا إنهم لم يعرفوا هذه الأبحاث بالمعنى الذى تناولها به الشيخ فى « دلائل الإعجاز » ، فكل الذى عناهم من ذكرها انها وقعت فى كلام العرب . كما وقعت فى القرآن الكريم . فاما أسرار ذلك ونكاته فلم تقع لهم ، ولم نعثر عليها بعد فى كلامهم . بل لسنا ندرى إلى اليوم ماذا كان يريد الجاحظ بالضبط من نظم القرآن . ولاكيف كان يتصوره فى كتابه الذى الفه فى الاحتجاج لهذا النظم . كما اننا لم ندر أيضا كيف كان يفهمه الواسطى فى كتابه « إعجاز القرآن بنظمه » غير أنه يخيل لنا أن الواسطى ربما كان يعنى النظم الذى عناه الشيخ لانه جعله مناط الإعجاز ، فلا يبعد أن يعرض لفضل النظم الكريم على نظم الكلام العربى . حتى صار معجزا ، وذلك يكون بالبحث فى خصائص النظمين وأسرار الفضل فيهما ، وقد يقوى هذا التخيل عندما تعرض الشيخ لكتاب الواسطى ، وشرحه مرتين كما سبق .

ومهما يكن الأمر . فإن النظم الذى يكتب عنه عبد القاهر فى دلائل الإعجاز إنما نبت اولا فى بيئة النحاة ، وكان له من بحثهم نصيب غير قليل ، لكن ليس على أنه من فن البلاغة ، وإنما وقع لهم على أنه من النحو بحسب ما كانوا يتصورونه أولا . ولسنا نلجأ فى إثبات ذلك إلا إلى الشيخ نفسه ، فقد أكثر فى « دلائل الإعجاز » من النقل

عن النحاة والاستشهاد بأقوالهم والبناء على أصولهم وفضولهم عن التقديم واغراضه وقد افتتحها بما نقل عن سيبويه من دلالة التقديم على الاهتمام . وبما نقل عن النحاة فى تفسير معنى الاهتمام ثم اعتبر ذلك أصلا فى هذا الباب[1] . وكذلك كان جواب ابى العباس المبرد الفيلسوف الكندى . فى الفرق بين قول العرب . عبد الله قائم . وإن عبد الله قائم ، وإن عبد الله لقائم من أن الأول إخبار ، والثانى جواب سائل ، والثالث جواب منكر مفتاحا لما كتب الشيخ فى لطائف « أن » ومواقعها[2] ، وأصلا للباب الذى سماه المتأخرون « أحوال الإسناد الاخيرى » وايضا نقل الشيخ عن ابى على الفارسى فى الشيرازيات ما قال النحاة فى « إنما » وانها بمعنى ما وإلا ، وان ابا على . أصاب من كلام العرب ما يدل على صحة قولهم ، وذلك قول الفرزدق :

أنا الذائد الحامى الذمار وإنما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى

فكان ذلك علما للشيخ فى بحثه عن خصائص « إنما » ومواقعها فى القصر[3] ونقل ايضا عن أبى على . فى التذكرة . رأيه فيما اشكل من النظم من مثل قول الشاعر : « نم وان لم انم كراى كراكا[4] » .

فالبحث اذن فى خصائص التراكيب وأسرارها وجد اولا عند النحاة ، وكان من جملة النحو عندهم قبل ان تتميز فنون العربية ويعرف اختصاص كل فن وحدوده . وكتاب سيبويه مشحون بأمثال المباحث التى ذكرناها عن عبد القاهر هنا[5] .

ولعل اهتداء النحاة أولا إلى خصائص النظم هكذا . مع ما عرف عن عبد القاهر من التضلع فى هذا النحو ، يفسر لنا سر توفيق الشيخ فى الكشف الواسع عن حقيقة

---

(١) دلائل الإعجاز ص٨٤ ، ١٠١ .

(٢) ص ٢٤٢ .

(٣) ص٢٥٢ .

(٤) ص٢٨٥ .

(٥) النحو النحاة ص ٣٦ ، ٤١ ، ٤٨ .

النظم ، وخواصه وأسراره ولطائفه . فاستطاع بذوقه الدقيق المتمكن ، وطبعه القوى المتدفق . ان يتتبعه فى صوره الكثيرة وأوضاعه المختلفة ، وان يبرز من محاسنه ويرفع من اقداره .

***

الصياغة عند عبد القاهر

يقرر عبد القاهر فى كتابه « دلائل الإعجاز » أن إعجاز القرآن إنما هو فى نظمه . وإن كان هو وحده صاحب هذا الرأى الذى نادى بذلك ، ولكننا نرى أنه ليس من السابقين إليه ، فقد سمعنا منذ عصر الجاحظ ومن جاء بعده بمن تحدثوا عن نظم القرآن واعتباره من جهات اعجازه ، ووضعوا كتبا تدل أسماؤها من أول الأمر على أنها وضعت لتبين أن إعجاز القرآن فى نظمه . وعبد القاهر فى نفسه يعترف بأن العلماء قبله قد أنزلوه أحسن منزل ، وأحلوه من الإعجاز أشرف محل ، ومن هنا كان « اطباقهم على تعظيم شأن النظم وتفخيم قدره ، والتنويه بذكره ، واجماعهم الأفضل مع عدمه ، ولا قدر لكلام اذا هو لم يستقم له ، ولو بلغ فى غرابة معناه ما بلغ ، وتبهم الحكم بأنه الذى لا تمام دونه ، ولا قوام إلا به ، وأنه القطب الذى عليه المدار ، والعمود الذى به الاستقلال[1] » وقد تعرضنا بإيجاز فى صدر هذا الفصل للحديث عن النظم قبل عبد القاهر ، ورأينا ان مدلوله من ناحية ، وتفرده بالإعجاز ، أو اشتراكه مع غيره فى ذلك من ناحية أخرى . قد اختلف من كاتب إلى آخر ، ورأينا ان تفسير القاضى عبد الجبار له يعتبر اقرب التفسيرات شبها برأى عبد القاهر برغم ما بينهما من اختلاف . حيث تفرد عبد القاهر بحصره فى دائرة محددة ، وحيث جعله دون غيره ، المرجع الأساسى فى الإعجاز ، وتناوله بالبيان والشرح ، ورد عنه كل الشبهات وارتفع على يديه إلى مستوى النظرية الكاملة ، وان امتدت جذوره فى التراث العربى قبله . إذ يكفيه فضلا وفخرا – وقد رأى هذه المنزلة الرفيعة للنظم عند العلماء – « الا يرضى من نفسه بأن يجد فيه سبيلا إلى مزيد علم ، وفضل واستبانة ، وتلخيص حجة ، وتحرير دليل ثم يعرض عن ذلك صفحا ، ويطوى دونه كشحا ..[2] » .

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٦٣ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٦٣ .

والنظم يعد المرجع الأساسى للإعجاز والمقياس الصحيح الذى يجب ان يعرض عليه الكلام الأدبى . لنتبين به مواطن الحسن أو القبح فيه .. والنظم عند عبد القاهر هو « توخى معانى النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التى يساق لها الكلام » .. ولا يمكن تصور النظم إلا من خلال علاقات متشابكة بين اجزاء الكلام(١) .

وهكذا وضع عبد القاهر للبلاغة والنقد الأساس الصحيح ، وهو نظم الكلام والعلاقات بين مفرداته على وجه يصور المعنى(٢) .

وقد وجد عبد القاهر فى دراسته النحويه مفتاحا لقضية النظم محط الإعجاز وموطن الفصاحة فالنحو عنده لم يقف عند صنع العبارة السليمة من الخطأ ، بل تعدى ذلك إلى صنع العبارة البليغة(٣) .

فالنظم عنده هو أن تضع كلامك الذى يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانيته وأصول ، وتعرف مناهجه التى نهجت ، فلا تزيغ عنها ، أو بعبارة أخرى . هو توخى معانى النحو فيما بين الكلم(٤) .

نعم كانت نظرات النحاة فى النظم ارهاصا لما أبدعه الشيخ فيه ، وكان بالنحو ثم افتداره بطبعه وذوقه ولطف حسه فى فهم الكلام ، جديرا بأن يظهره عليه ، وأن يسلس له من قياده ويبلغ به الغاية التى تراها فى دلائل الإعجاز ، فتصويره لبلاغة النظم وجلالهوكشفه عن لطائفه وأسراره ، واسترساله فى مسائله وأبوابه ، مع البسط الواسع والعرض الساحر ، وكثرة المثل والشاهد ، وبراعة النقد والتحليل . كل ذلك من عمل الشيخ وحده فهو من غير شك صاحب الفضل فى هذا النظم البلاغى ، بهذا الأسلوب الحديث . وشاهد ذلك أن جميع من كتبوا فى البلاغة والنقد ممن

---

(١) ص ٧ من اسرار التركيب البلاغى – د . سيد عبد الفتاح حجاب – طبعة أولى ١٣٩٧ /١٩٧٧ – المكتبة التوفيقية – القاهرة .

(٢) ٢٣ سمات البلاغة عند عبد القاهر – د. محمد جلال الذهبى ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م .

(٣) ٢٨ المرجع السابق – وراجع من أسرار التنزيل للرازى – تحقيق عبد القادر عطا – نشر دار المسلم .

(٤) ٢٨٢ دلائل الاعجاز .

عاصروا الشيخ أو سبقوه . لم يفهموا من النظم أكثر من سلامة الأسلوب من الخطأوالحوشية والتعقيد . ترى ذلك فيما كتب الأمدى والقاضى الجرجانى ، وأبو هلال والخفاجى ، وابن رشيق[1] .

وإذا كانت تلك الأسباب هى التى هيأت للشيخ هذا الفضل ، فإن هناك ، فكرتين قويتين وقضيتين عظيمتين . قد استحثتا من قريحته ، وأذكتا من حميته ، وكانتا ذاتى أثر بالغ فى نضاله عن النظم وتجواله فى افنانه ، وهما قضية الإعجاز وقضية اللفظ والمعنى .

فإما الإعجاز فان الشُّبه والاراء التى قامت حوله قد أقضت مضجع الشيخ ، ودفعته دفعا لاهوادة فيه ، إلى تغرس مافى الأساليب من أسرار ، وتعرف مالها من مزايا وخصائص ، وكيف تتفاضل حتى تصل إلى الإعجاز ، ذكر ذلك كثيرا كلما جعل يؤاخذ على سوء نظر أو خطأ فى النظم قد يؤدى إلى إبطال معنى الإعجاز والتحدى[2] .

واما قضية اللفظ والمعنى فقد شغلت باله كثيرا ، وابدأ فيها وأعاد اذ رأى من الناس من ينسب الفضيلة والشرف إلى اللفظ وحده ويهمل أمر المعنى ، كما رأى منهم من يفخم قدر المعنى ويجعل المزية والحسن له ، فهب فى وجه أولئك وهؤلاء معا . وتعقب شبههم بكل سبيل وأبان عن اخطائهم بكل دليل ، وانتهى به الرأى أن حسن اللفظ وحده لا يعدو ان يكون عذبا رشيقا وخفيفا على اللسان مألوفا[3] ، وان حسن المعنى وحده لايعدو دلالته على أدب فاضل أو خلق كريم أو حكمة صائبة[4] . فاما الشرف الذى به تتفاضل اقدار الكلام ، وتتباين مراتبه ومنازله ، حتى يكون منه المعجز الذى لا يرام والسابق الذى لا يدرك والنازل الذى

---

(١) الموازنة ص١٢٥ ، ١٢٦ ، والوساطة ص٨٧ ، ٨٨ ، ٣١٢ ، ٣١٦ والصناعتين ص١٠٦ ، ١١٠ ، ١٢٠ – ١٢٨ وسر الفصاحة ص ١٠٣ – ١٠٧ ، ١٥٠ –١٥٢ والعمدة ج١ ص ١٧١ – ١٧٥ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٣٢ ، ٤٧ ، ٨٥ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٣٠٠ ، ٣٦٤ ، ٣٩٨ .

(٣) اسرار البلاغة ص٣ ، ٤ ، دلائل الإعجاز صـ٣٦ ، ٣٥٣ ، ٤٠١ .

(٤) الدلائل ص ١٩٦ .

لا يوزن . فإنما هو شيء غير اللفظ . والمعنى هو النظم ، وتوخى معانى النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض والدواعى .

تلك حكمة عبد القاهر فى قضية اللفظ والمعنى والنظم ، أعطى كلا حقه بلا غبن أو حيف ، وأنزل كلا المنزلة التى لا يعدوها ، ومع ما فى هذه الحكمة من وضوح وصراحة ، وأن الشيخ كرر النص عليها فى مواضع القوانين والأصول ، فإن الخطيب –رحمه الله– رأى فى مجموع كلام الشيخ ما يوهم التناقض فى هذه الحكمة . أو بعبارة أخرى رأى أن يوجد فيه تناقضا فى هذه الحكمة ثم حاول التوفيق . لكن « السعد » فى الطول لم يرتض من الخطيب هذا التوهم ، ودافع عن الشيخ بكلام الشيخ نفسه فى دلائل الإعجاز حتى رمى الخطيب بأنه لم يتصفح دلائل الإعجاز حق التصفح[1] .

يقول عبد القاهر فى فضل الصياغة أو النظم :

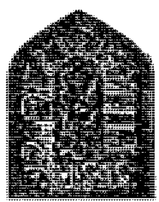
« وقد علمت أطباق العلماء على تعظيم شأن النظم وتفخيم قدره » .

***

(١) المطول بحاشية السيد ص٢٨ .

الفصل الخامس

النظم عند عبد القاهر



وإذا كانت شهرة عبد القاهر بالبلاغة قد ذاعت وطارت فى كل مكان فإن شهرته بالنقد لاتقل فى الحقيقة عن شهرته بالبلاغة ، وكتاباه يمثلان الذروة فى كتب النقد العربى ، ويمثلان منهجاً كاملا فيه .

وفى كتاب « دلائل الإعجاز » الذى ألفه عبد القاهر ليحمل مقدمات فى دراسة الإعجاز القرآنى ، يتحدث عن نظريته فى النظم كأساس لفهم فضيلة الكلام وبلاغته ، ولفهم إعجاز كتاب اللّه كذلك .. الكتاب فى قمة كتب البلاغة والبيان .

وفى كتابه « أسرار البلاغة » يتحدث بتفصيل عن المعانى الشعرية وأقسامها ، ويخص التشبيه والتمثيل والاستعارة والمجاز والكناية وضروب التخييل بالشرح والإيضاح والبيان .

وفى مقدمة « دلائل الإعجاز » يعرف عبد القاهر النظم بأنه « تعلق الكلم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض ، ويجعل وجوه التعلق ثلاثة : تعلق اسم بإسم وتعلق اسم بفعل ، وتعلق حرف بهما . ويشرح وجوه التعلق شرحا وافياً .

ويؤكد أن نظم الكلام يقتفى فيه آثار المعانى وترتبها حسب ترتب المعانى فى النفس . وليس النظم فى مجمل الأمر عنده إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه فلا تزيغ عنها . فمداره على معانى النحو ، وعلى الوجوه والفروق التى من شأنها أن تكون فيه ، وليس هو إلا توخى معانى النحو فى معانى الكلم ، فلا معنى للنظم غير توخى معانى النحو وأحكامه فيما بين الكلم ، أو فيما بين معانى الكلم بتعبير آخر ، والفكر لا يتعلق بمعانى الكلم المفردة مجردة عن معانى النحو أو منطوقا بها على وجه لا يتأتى معه تقدير معانى النحو وتوخيها فيها .

ويشير عبد القاهر إلى أنه من الضرورى فى معرفة الفصاحة أن تضع اليد على الخصائص التى تعرض فى نظم الكلام ، وأن الألفاظ لاتتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة ولا من حيث هى كلم مفردة ، وإنما تثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها أو ما أشبه ذلك ، مما لاتعلق له بصريح اللفظ .

ويأخذ فى تفصيل أمر المزية ، وبيان الجهات التى منها تعرض ، فيتحدث عن وجوه النظم فى التقديم والتأخير ، والذكر والحذف ، والتعريف والتنكير ، والوصل والفصل ، والقصر . ويفيض فى ذكر ضروب تأكيد الخبر ، ويعرض التشبيه والتمثيل والكناية والمجاز والاستعارة ، مقررا أن المزية فيها ليست فى أنفس المعانى التى يقصد المتكلم إليها بخبر ، ولكنها فى طريق إثباته لها ، وتقريره إياها ، وإذا عرض للاستعارة فى بيت ابن المعتز المشهور :

سالت عليه شعاب الحى حين دعا أنصاره بوجـــوه كالدنـــانير

أكد أن الاستعارة هنا ، على لطفها وغرابتها ، إنما تم لها الحسن بما توخى فى وضع الكلام من التقديم والتأخير ، وتجدها وقد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها ، وكذلك يفصل الكلام على مدخل النظم فى بلاغة الاستعارة فى قوله تعالى : « واشتعل الرأس شيبا » ، وقوله : « وفجرنا الأرض عيونا » ، ويتحدث عن التشبيه فى مثل : زيد كالأسد ، وكأن زيدا الأسد ، وأن فى المثال الثانى زيادة فى معنى التشبيه ليست فى الأول ، وهذه الزيادة لم تكن إلا بما توخى فى نظم اللفظ وترتيبه ، حيث قدم الكاف إلى صدر الكلام ، وركبت مع « أن » .. كما يتحدث عن ضروب المجاز العقلى أو المجاز فى الإسناد وعن المجاز بالحذف وعن ضروب الكناية فى النسبة ، ومدخل النظم فى بلاغتها .

بل إنه ليقرر أن الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من مقتضيات النظم ، وعنها يحدث ، وبها يكون ، لأنه لايتصور أن يدخل شيء منها فى الكلم وهى أفراد ، فإذا قلنا فى لفظ « اشتعل » من قوله تعالى : « واشتعل الرأس شيبا » إنها فى أعلى المرتبة من الفصاحة لم توجد تلك الفصاحة لها وحدها ، ولكن موصولا بها الرأس معرفا بالألف واللام ، ومقرونا إليهما الشيب منكرا منصوبا ، فليست الفصاحة صفة للفظ « اشتعل » وحده .

ويقرر عبد القاهر فى « دلائل الإعجاز » أن المزية للكلام إنما هى فى نظمه باعتبار ملاءمة معنى اللفظة لمعنى اللفظة التى تليها ، وليس الفضل والمزية فى الكلام أن تنظر فى مجرد معناه ، فالفصاحة والبلاغة عبارة عن خصائص ووجوه تكون معانى الكلام عليها ، وزيادات تحدث فى أصول المعانى ، كالذى أريتك فيما بين « زيد كالأسد »

و« كأن زيدا الأسد » ، ولانصيب للألفاظ من حيث هى ألفاظ فيها بوجه من الوجوه ، فأنفس الكلم بمعزل عن الاختصاص والمزية ، فليس للفظ من حيث هو لفظ حسن ومزية ، إذ المزية ليست بمجرد اللفظ ، وإنما تقع فى اللفظ مرتبا على المعانى المرتبة فى النفس ويجعل عبد القاهر كذلك ذروة المزية والبلاغة ، وهى الإعجاز القرآنى ، فى النظم وحده ، لا فى شيء آخر .

وبذلك ينتهى عبد القاهر من عرض نظريته فى النظم . هذا العرض الجديد ، لتلك النظرية الجديدة أيضا .

وخلاصة ما يقرره عبد القاهر هو :

١ – أنه لا فصل بين الألفاظ ومعناها ، ولا بين الصورة والمحتوى ، ولا بين الشكل والمضمون ، فى النص الأدبى .

٢ – أن البلاغة فى النظم ، لافى الكلمات مفردة ، ولا فى مجرد المعانى ؛ والباحث عن الإعجاز عليه أن يتبعه فى النظم وحده .

٣ – أن النظم هو فى مراعاة معانى النحو وأحكامه وفروقه ووجوهه فيما بين معانى الكلم .

٤ – ولذلك أخذ عبد القاهر فى كتابه الخالد « دلائل الإعجاز » يعرض لوجوه تركيب الكلام وفق أحكام النحو ، مستنبطا الفروق بينها ، عارضا لأسرار المزية والحسن والبلاغة فيها .

وهذه النظرية ، وهى نظرية النظم ، بما اشتملت عليه من تطبيقات وشروح واسعة ، جديدة كل الجدة عند عبد القاهر ، إذ لم يعرضها أحد قبله هذا العرض المتميز . ولذلك جهد عبد القاهر ، فى إيضاحها ، ودفع الشبه عنها ، والرد على من يعترضه فيها ، من أول « دلائل الإعجاز » إلى آخره .

ففلسفة عبد القاهر البيانية تنهض على أساس فكرة النظم ، وإذا كان هناك من يذهب إلى أن عبد القاهر لم يكن مخترعا لها ، وإنما كان هو الذى بسط القول فيها ، وأقام على أساسها فلسفة كتابه ، فقد سبقه إليها الواسطى صاحب كتاب « إعجاز

القرآن فى نظمه » وظهرت كذلك هذه الفكرة واضحة فى الصراع الذى أثاره امتزاج الثقافات ، وتعصب حملة اليونانية لفلسفة اليونان ومنطقهم ، ودفاع حملة العربية عن تراثهم وثقافتهم ومنها الثقافة النحوية . فإن كتاب الواسطى المفقود لا ينهض حجة على ذلك ، وتعصب المثقفين بالثقافة المترجمة المعانى ولمنطق أرسطو وعدم اهتمامهم بالألفاظ ، ودفاع علماء العربية عن الأسلوب العربى ، وتنقصهم لمعانى أرسطو ومنطقه ، كل ذلك لا شبه بينه وبين نظرية النظم عند عبد القاهر .

وعلى أى حال . فإننا لا نذهب إلى أن رد البلاغة والإعجاز إلى النظم هو الجديد عند عبد القاهر فحسب ، ولكن الجديد عنده هو شرحه لنظرية النظم . هذا الشرح الجديد حقاً ، وتطبيقه عليها هذه التطبيقات النقدية البيانية الواسعة ، وفرق على أية حال بين أية نظرية فى استنباتها وبينها فى قمة ازدهارها . وإذا كان عبد القاهر لا يخرج بالنظم عن معانى النحو ، وكانت فكرة النظم عنده تقوم على معرفة هذا النحو وما ينشأ عن الكلمات حين تتغير مواضعها من المعانى المتجددة المختلفة ، فإن الجديد عند عبد القاهر أيضاً هو أنه استخدم معانى النحو وأحكامه استخداماًجديداً بيانياً نقدياً محضاً ، وإلا لكان فى النحو غنى عن كل ما قرره عبد القاهر الجرجانى والبلاغيون من أحكام بيانية بلاغية ، وذلك ما يرده عبد القاهر ويؤكد نفيه له فى كتابه ، كما يقرر فى كل فصل من فصول « الدلائل » أن لا سبيل إلى معرفة الإعجاز إلا « النظر فى الكتاب الذى وضعناه » واستقصاء التأمل لما أودعناه وأنه « الطريق إلى البيان والكشف عن الحجة والبرهان ، وأن لا معنى لبقاء المعجزة بالقرآن إلا الوصف الذى كان له معجزاً ، والطريق إلى العلم به موجود أى ممكن، ويكرر فى الكتاب أنه يقرر أمورا صعبة على الفهم ، وغير ذلك مما جعل عبد القاهر يشحذ ذهنه فى تقريرها . وذهن القارىء والسامع فى تقبلها لوجه الجدة فيها ، وأنه المبتكر لها .

ولقد اعتمد عبد القاهر على الذوق الأدبى الخالص اعتماداً كلياً فى كل ما قرره من أحكام ، مؤكداً أنه لا يصادف القول فى هذا الباب موقعاً من السامع ، ولا يجد لديه قبولا ، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة ، وحتى يكون ممن تحدثه نفسه بأن لما يومىء إليه من الحس واللطف أصلا وحتى يختلف الحال عليه عند تأمل

الكلام ، فيجد الأريحية تارة ، ويعرى منها تارة أخرى ، وحتى إذا عجبته تعجب ، وإذا نبهته لموضع المزية انتبه .

وقد أثرى عبد القاهر البلاغة العربية والبيان العربى إثراء جليلا ، بما كتب فى نقد الأساليب وتحليلها ، واستنباط الفروق والخصائص فيما بينها ، وبما عرض له من أحكام نقدية دقيقة ، على الأساليب وضروب النثر والشعر .

إنه ليس لنظرية عبد القاهر فى النظم من القيمة ما لتطبيقاته ، فهناك يظهر ذوقه العربى السليم ، ذلك الذوق الذى لا يمكن أن يغنى فى الأدب عنه شيء ، ونظرية عبد القاهر فى رمزية اللغة وفى التحليل اللغوى(*) ورد المعانى إلى النظم ، ومنهجه فى نقد النصوص نقداً موضعياً ، ماهى إلا مراحل تنتهى به إلى الذوق الذى يدرك الدقائق ويحس بالفروق ، ووجوه الكلام وأسراره . وإحساس عبد القاهر الأدبى السليم سابق دائماًلعقله ، والحكم على النظم عنده هو النظر فى المعنى منظوماً والذوق هو الفيصل الأخير فى الحكم على هذه الدقائق . وإلى هذا فطن عبد القاهر بحسه الأدبى الصادق ، فالذوق عنده يتحكم فى نظم المعانى التى نعبر عنها . وتسوق فكرة النظم عند عبد القاهر إلى تخطى الإعراب والجملة البسيطة إلى الجملة المركبة ، التى عنى بها فى دلائل الإعجاز وفى أسرار البلاغة كذلك فى مبحث التشبيه عناية فائقة ، ونقدها نقداً بيانياً أدبياً .

إن الأدب عند عبد القاهر فن لغوى ، فإخضاع الفكرة أو الإحساس للفظ . هو ما يميز الأدب عن غيره من الفنون ، وهذه النظرية الصحيحة هى موضع اعتزازنا بتفكير عبد القاهر ، والذى يبدأ بنظرية فلسفية فى اللغة ، ثم ينتهى إلى فن الذوق الشخصى الذى هو مرجعنا الأخير فى دراسة الأدب ، وما النقد إلا وضع مستمر للمشكلات البيانية ، فلكل جملة أو بيت مشكلته التى يجب أن نعرف كيف نراها ونصفها ونحكم فيها ، وهذا هو النقد الموضعى كما رآه الجرجانى .

(*) راجع كتاب منطق اللغة (نظرية عامة فى التحليل اللغوى) – طبع بغداد – تأليف ياسين خليل .

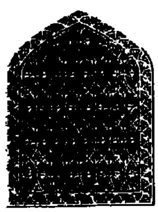
لقد اهتدى عبد القاهر إلى كل تلك الحقائق ، التى إذا كان لها فى تفكير اليونان القدماء ما يماشيها ، وفى علم اللسان الحديث ما يؤيدها ، فإن الفضل الأكبر فى الوقوع عليها يرجع إلى مواهب عبد القاهر الفطرية المبتكرة الخصبة .

وبعد فهذه هى نظرية النظم ، التى يرجع إلى عبد القاهر الجرجانى فضل ابتكارها والكشف عنها ، والتى تعد طليعة كاملة لعلم البلاغة العربية ، كما جمع أشتاته السكاكى (٦٢٦هـ) من كلام عبد القاهر فى كتابيه الخالدين : دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة .

***

الفصل السادس

جذور الأسلوبية فى دلائل الإعجاز



— ١ —

يعرض عبد القاهر فى الدلائل لكثير من المشكلات الأدبية والبيانية والنقدية فى عصره ويبدى رأيه فيها .

١ – فقد أبان فى كتابه مدى قيمة عنصر المعنى فى النص الأدبى ، ومع ذلك فقد رد ردا شديدا على من يقدمون الشعر لمعناه ، ويقللون من الاحتفال باللفظ ، ولا يرون الجودة إلا فى أن يكون الشعر قد أودع حكمة وأدبا ، واشتمل على تشبيه غريب ومعنى نادر ، فإن مالوا إلى اللفظ شيئا : لم يحفلوا بغير الاستعارة ، وعبد القاهر وإن جارى هؤلاء قليلا فيما عرض له من السرقات والأخذ فى المعانى الشعرية ، إلا أنه يقرر فى قوة وجرأة خطأ من يجعل الأساس فى الحكم على الشعر . هو المعنى ، ويقول ، ويقول : إن الأمر بالضد . فإننا لا نرى متقدما فى علم البلاغة مبرزا فى شأوها إلا هو ينكر هذا الرأى ويزرى على القائل به ، ويغض منه ، ويقول عبد القاهر : إنهم لم يعيبوا تقديم الكلام بمعناه لجهلهم بأن المعنى إذا كان أدبا وحكمة وكان غريبا نادرا فهو أشرف ، بل عابوه من حيث كان من قضى فى جنس من الأجناس بفضل أو نقص ألا يعتبر فى قضيته تلك إلا الأوصاف التى تخص ذلك الجنس وترجع إلى حقيقته ، وأن لا ينظر فيها إلى جنس آخر وإن كان من الأول بسبيل أو متصلا به اتصال مالا ينفك منه ، ويقرر أثر ذلك أن الصياغة والنظم هما اللذان يجب النظر إليهما فى الحكم على الشاعر والشعر ، فمعلوم أن سبيل الكلام سبيل الصياغة والتصوير ، وأن سبيل المعنى الذى يعبر عنه سبيل الشيء الذى يقع فيه التصوير ، ثم يستدل بكلام الجاحظ فى خطأ من يقدم الشعر بمعناه حيث يقول الجاحظ : والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والقروى والبدوى ، وإنما الشأن فى اقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وصحة الطبع ، وجودة السبك ، وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير[1] . يقول

(١) ١٦٧ المرجع .

بعض الباحثين[1] : إن الشاعر لا يكفيه أن يحصل قدرا من الأفكار[2] حتى يستطيع أن يقول الشعر : فنحن لا نحكم على الشاعر إلا بعد أن نقرأ الألفاظ التى كتبها .. ويقرر عبد القاهر كذلك أنه لا يكون لاحدى العبارتين مزية على الأخرى حتى يكون لها فى المعنى تأثير لا يكون لصاحبتها ، والمعنى فى مثل هذا يراد به الغرض الذى أراد المتكلم أن يثبته أو ينفيه نحو أن نقصد تشبيه الرجل بالأسد ، فنقول « زيد كالأسد » ، ثم تريد هذا المعنى بعينه فتقول « كأن زيدا الأسد » تجعله من فرط شجاعته أنه لايتميز عن الأسد ، ولا يقصر عنه حتى يتوهم أنه أسد فى صورة آدمى ، فانظر هل كانت هذه الزيادة إلا بما توخى فى نظم اللفظ وترتيبه[3] .

٢ - ويقرر عبد القاهر أن الكلام على ضربين :

(أ) ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده .

(ب) وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلك اللفظ على معناه الذى يقتضيه موضوعه فى اللغة ، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض ، ومدار هذا الأمر على الاستعارة والكناية[4] ، ويقول إنك إذا عرفت هذا المعنى فها هنا عبارة مختصرة ، وهى أن تقول المعنى ومعنى المعنى ، تعنى بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ ، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضى بك ذلك المعنى إلى معنى آخر[5] . والمعنى الأولى والمعنى الثانوى اصطلاحان بلاغيان مشهوران .

وقد فهم النقاد نظرية عبد القاهر تلك ، وتوسعوا فيها ، فقالوا : إن المعنى الذى تجده فى معاجم اللغة للكلمة ما هو إلا النواة التى يتجمع حولها طائفة من المعانى الثانوية ، وكثير من المهارة الأدبية عبارة عن اطلاق تلك المعانى

---

(١) ١٠٩ ، ١١٠ الأدب وفنونه . عز الدين اسماعيل .

(٢) ويقول مالارميه : إن الشعر لا يصنع من الأفكار ، ولكنه يصنع من الألفاظ (١٠٩ المرجع نفسه) .

(٣) ١٦٨و ١٦٩ المرجع .

(٤) ١٧٠و ١٧١ المرجع .

(٥) ١٧١ المرجع .

الثانوية لتؤثر تأثيرها فى الخيال[١] فإن أسمى ما يصل إليه فن الأدب أن يجعل الإيحاء اللفظى من السيطرة وبعد المدى والحيوية والقوة بمكان عظيم[٢] فالشاعر يستخدم المعنى العقلى للألفاظ ، ويستخدم كذلك علاقاتها وإيحاءاتها وصوتها وايقاعها والصور الموسيقية وغيرها مما تكونه الألفاظ حين يربط بعضها ببعض[٣] .

٣ – وكذلك عرض عبد القاهر للفظ وأبان أهميته فى الأداء والتعبير البيانى ، ولكنه نفى أن تكون الفصاحة صفة اللفظ من حيث هو لفظ ، وذلك فى مواضع كثيرة من الكتاب[٤] .

٤ – ويتحدث عبد القاهر فى إعجاز القرآن حديثا موجزا . لأنه مشغول بوضع الأساس الذى يحلل كلام الله الكريم على ضوئه . ليعرف إعجازه ، ويبين عظمته ومنزلته فى البلاغة ، وان كان قد رد على من ذهب مذهب الصرفة ، وأن الإعجاز فى القرآن سببه صرف الله العرب عن معارضته .. وهكذا يفيض عبد القاهر فى دلائل الإعجاز فى شرح النظم وأسرار بلاغته ، مما يجعلنا نؤمن بأن « دلائل الإعجاز ، قد ألفه عبد القاهر لبيان هذه النظرية البيانية الخطيرة والتطبيق عليها ، وذلك أنه جعل معرفة أسرار الإعجاز مرتبطة بمعرفة أسرار النظم ودقائقه ووجوهه ، وقد سمى كتابه « دلائل الإعجاز » ، وهو لا يريد حجج الإعجاز ، لأنه لم يتكلم عنها ، ولم يعرض لها ، وإنما يريد بالدلائل . معنى مقدمات ، فكأنه يقول هذه هى مقدمات لفهم قضية الإعجاز وأسراره ، ومن ثم جعل الكتاب من أوله إلى آخره خاصا بقضية النظم . وبالتطبيق النقدى عليها . لان معرفة هذه القضية مقدمة لمعرفة أسرار الإعجاز نفسه .

ومن الخطأ الجسيم ما ذهب إليه كثير من الباحثين من أن « دلائل الإعجاز » خاص ببحوث علم المعانى[٥]، والدليل على هذا الخطأ الفادح

(١) ص ٤٠ قواعد النقد الأدبى .

(٢) ٣٨ المرجع .

(٣) ١٠٢. الأدب وفنونه ، •

(٤) راجع ٢٥٧ ، ٢٩٧ الدلائل .

(٥) راجع مثلا : ١٦١ البيان العربى .

واضح ، فإن عبد القاهر لم يخص كتابه دلائل الإعجاز ببحوث علم المعانى وحده ، بل تكلم فيه كذلك عن التشبيه . والاستعارة والمجاز والكناية ، مما هو من مباحث علم البيان .

وتكلم فيه كذلك عن التقسيم والمزاوجة والسجع وغيرها مما هو من مباحث علم البديع ، فكيف يكون الكتاب فى علم المعانى ؟

لا ، إنما ألف عبد القاهر كتابه لعرض نظريته الجديدة حول النظم[1] ، والتطبيق عليها ، ليجعل مما يقرره فى ذلك كله مقدمة لفهم قضية إعجاز القرآن الكريم ، وإذا كانت كلمة المعانى وردت عند عبد القاهر فى الدلائل فإنه لم يكن يعنى بها نفس المدلول الذى جعله السكاكى لها وعناه بها . —

***

(١) كتب مصطفى ناصف عن النظم فى دلائل الإعجاز فى حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس يناير ١٩٥٥ ، وللدكتور محمد نايل كتاب بعنوان « نظرية العلاقات أو النظم بين عبد القاهر والنقد العربى الحديث » .

— ٢ —

ونظرية النظم أهم النظريات فى البلاغة العربية ، وبخاصة بلاغة عبد القاهر ، وقد عرض لها عبد القاهر فى « دلائل الإعجاز » عرضا واسعا ، وكذلك أشار إليها فى « أسرار البلاغة » ، وسوف نستعرض آراءه هنا بتفصيل .

فى مقدمة دلائل الإعجاز يعرف عبد القاهر النظم بأنه « تعليق الكلم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض ، ويجعل وجوه التعلق ثلاثة :

١ – تعلق اسم باسم بأن يكون خبرا عنه أو حالا منه أو تابعا له . الخ .

٢ – « اسم بفعل » ، فاعلا له أو مفعولا به أو مطلقا أو فيه أوله أو معه .

٣ – « حرف بهما وذلك على وجوه عدة » .

ويشير إلى أنه من الضرورى فى معرفة الفصاحة أن نضع اليد على الخصائص التى تعرض فى نظم الكلام ، وأن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هى كلم مفردة ، وإنما تثبت لها القضية وخلافها فى ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ .

ويؤكد أن نظم الكلم يقتفى فيه آثار المعانى وترتبها على حسب ترتيب المعانى فى النفس .

وليس النظم فى مجمل الأمر إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه ، فلا تزيغ عنها ، فمداره على معانى النحو وعلى الوجوه والفروق التى من شأنها أن تكون فيه . وليس هو إلا توخى النحو فى معانى الكلم ، فلا معنى للنظم غير توخى معانى النحو وأحكامه فيما بين الكلم أو فيما بين معانى الكلم بتعبير آخر .

والفكر لا يتعلق بمعانى الكلم المفردة مجردة من معانى النحو أو منطوقا بها على وجه لا يتأتى معه تقدير معانى النحو وتوخيها فيها .

ويأخذ فى تفصيل أمر المزية وبيان الجهات التى منها تعرض :

فيعرض للفظ يطلق والمراد به غير ظاهره مما يدور فى الأعم على شيئين : المجاز والكناية ويقرر أن المزية فيهما وفى التمثيل ليست فى أنفس المعانى التى يقصد المتكلم إليها ولكنها فى طريق اثباته لها وتقريره أياها .

ويعرض للاستعارة فى بيت ابن المعتز :

سالت عليه شعاب الحى حين دعا   أنصاره بوجـــوه كالدنـــانير

مؤكدا أنها على لطفها وغرابتها إنما تم لها الحسن بما توخى فى وضع الكلام من التقديم والتأخير ، وتجدها قد صلحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها وكذلك يفصل الكلام على مدخل النظم فى بلاغة الاستعارة فى قوله تعالى : ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ ، وقوله ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ .

ويتحدث عن التشبيه فى مثل زيد كالأسد ، وكأن زيدا الأسد ، ففى المثال الثانى زيادة فى معنى التشبيه ليست فى الأول ، وهذه الزيادة لم تكن إلا بما توخى فى نظم اللفظ وترتيبه . حيث قدم الكاف إلى صدر الكلام وركبت مع أن .

كما يتحدث عن ضروب من المجاز العقلى أو المجاز فى الإسناد وعن ضروب الكناية فى النسبة .

ويقرر أن الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من مقتضيات النظم . وعنها يحدث ، وبها يكون . لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها فى الكلم وهى أفراد ، فإذا قلنا فى لفظة « اشتعل » من قوله تعالى ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ إنها فى أعلى المرتبة من الفصاحة . لم توجب تلك الفصاحة لها وحدها ، ولكن موصولا بها الرأس معرفا بالألف واللام ، ومقرونا إليهما الشيب منكرا منصوبا ، فليست الفصاحة صفة للفظ « اشتعل » وحده .

ويتحدث عن وجوه النظم فى التقديم والتأخير ، وفى الحذف ، ويتكلم على فروق الخبر من مثل . زيد منطلق . ومنطلق زيد . وزيد المنطلق . والمنطلق زيد . وعلى أسرار الاتيان بالذى ، وعلى فروق فى الحال ، لها فضل تعلق بالبلاغة . وعلى أسرار الفصل والوصل ، وعلى تقديم كل على النفى وتأخيرها عنه ، وعلى مثل ﴿وَجَعَلُوا۟

الله شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ ﴾ ، وعلى أسرار التنكير فى مثل ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ ، وعلى ضروب من تأكيد الخبر وعلى القصر .

ويقرر أن المزية للكلام إنما هى فى نظمه باعتبار ملاءمة معنى اللفظة لمعنى اللفظة التى تليها ، وليس الفضل والمزية فى الكلام أن تنظر فى مجرد معناه .

فالفصاحة والبلاغة عبارة عن خصائص ووجوه تكون معانى الكلام عليها ، وزيادات تحدث فى أصول المعانى ، كالذى أريتك فيما بين زيد كالأسد وكأن زيدا الأسد ، ولا نصيب للألفاظ من حيث هى ألفاظ فيها بوجه من الوجوه ، فأنفس الكلم بمعزل عن الاختصاص والمزية ، فليس للفظ من حيث هو لفظ حسن ومزية ، اذ المزية ليست بمجرد اللفظ وإنما تقع فى اللفظ مرتبا على المعانى المرتبة فى النفس .

ويجعل الإعجاز القرآنى فى النظم وحده لافى شىء آخر .

وبذلك ينتهى عبد القاهر من عرض نظريته فى النظم . هذا العرض الجديد لتلك النظرية الجديدة أيضا .

وخلاصة ما يقرره عبد القاهر :

١ – أنه لافصل بين الكلام ومعناه . ولا بين الصورة والمحتوى .
٢ – أن البلاغة فى النظم لا فى الكلمة مفردة ، ولا فى مجرد المعانى .
٣ – أن النظم هو توخى معانى النحو وأحكامه وفروقه فيما بين معانى الكلم .
٤ – ولذلك أخذ عبد القاهر يعرض لوجوه تركيب الكلام وفق أحكام النحو ، مستنبطا الفروق بينها ، عارضا لأسرار المزية والحسن والبلاغة فيها .

وهذه النظرية ، وهى نظرية النظم ، بما اشتملت عليه من تطبيقات واسعة عند عبد القاهر ، لم يعرض لها أحد قبله ، ولذلك جهد عبد القاهر فى ايضاحها ، ودفع الشبه عنها ، والرد على من يعترض عبد القاهر فيها ، من أول « دلائل الإعجاز » إلى آخره .

وقد اعتمد عبد القاهر على الذوق الأدبى الخالص اعتمادا كليا فى كل ما يقرره من أحكام ، مقررا أنه لايصادف القول فى هذا الباب موقعا من السامع ، ولا يجد

لديه قبولا ، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة ، وحتى يكون من تحدثه نفسه بأن لما يومىء إليه من الحسن واللطف أصلا ، وحتى يختلف الحال عند تأمل الكلام فيجد الأريحية تارة ويعرى منها أخرى ، وحتى اذا عجبته عجب واذا نبهته لموضع المزية انتبه .

وقد اثرى عبد القاهر البلاغة العربية والبيان العربى اثراء جليلا ، فى نقد الأساليب وتحليلها ، وأستنباط الفروق والخصائص فيما بينها ، وبما عرض له من أحكام نقدية دقيقة على أساليب كثيرة من ضروب الشعر والنثر .

ويقول الدكتور بدوى طبانة فى كتابه « البيان العربى» : إن فلسفة عبد القاهر البيانية تنهض على أساس فكرة النظم ، وان عبد القاهر لم يكن مخترعا لها وان كان هو الذى بسط فيها القول ، وأقام على أساسها فلسفة كتابه ، فقد سبقه إليها الواسطى المتكلم (٣٠٧هـ) صاحب كتاب « إعجاز القرآن فى نظمه » وظهرت هذه الفكرة واضحة فى الصراع الذى أثاره امتزاج الثقافات ، وتعصب حملة اليونانية لفلسفة اليونان ، ومنطقهم ودفاع حملة العربية عن تراثهم وثقافتهم ومنها الثقافة النحوية[(١)].

ولا نستطيع أن نقول إن رد البلاغة والإعجاز إلى النظم هو الجديد عند عبد القاهر حتى ينفيه صاحب « البيان العربى » ولكن الجديد عنده هو شرحه لنظرية النظم . هذا الشرح الجديد حقا . وتطبيقه عليها هذه التطبيقات الواسعة ، واذا كان عبد القاهر لم يخرج بالنظم عن معانى النحو ، وكانت فكرة النظم عنده تقوم على معرفة هذا النحو ، وما ينشأ عن الكلمات حين تتغير مواضعها من المعانى المتجددة المختلفة[(٢)] . فإن الجديد عنده هو أنه استخدم معانى النحو وأحكامه استخداما جديدا بيانيا محضا .. وإلا لكان فى النحو غنى عن كل ما قرره عبد القاهر من أحكام بيانية بلاغية . ويقرر عبد القاهر فى كل فصل من فصول « الدلائل » أن لا سبيل لمعرفة الإعجاز إلا النظر فى الكتاب الذى وضعناه ، واستقصاء التأمل لما أودعناه ، وأنه « الطريق إلى البيان والكشف عن الحجة والبرهان[(٣)] ولا معنى لبقاء المعجزة

---

(١) ١٦٣ البيان العربى – طبعة ثالثة .

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) مقدمة دلائل الإعجاز .

بالقرآن إلا الوصف الذى كان له معجزا ، « والطريق إلى العلم به موجود[1] أى ممكن ويكرر فى الكتاب أنه يقرر أمورا صعبة ، وأنه قد يصعب فهمها ، وغير ذلك مما جعل عبد القاهر يشحذ ذهنه فى تقريرها ، وذهن القارىء والسامع فى تقبلها لوجه الجدة فيها ، وأنه المبتكر لها .

ويعرض الدكتور مندور لقضية النظم عند عبد القاهر فيقرر :

١ – أن الأدب فن لغوى[2] كما قرر عبد القاهر من قبل بالفحوى فاخضاع الفكرة أو الإحساس للفظ هو مايميز الأدب عن غيره من الفنون ، وهذه النظرية الصحيحة هى موضوع اعتزازنا بتفكير عبد القاهر . وعبد القاهر يبدأ بنظرية فلسفية فى اللغة ، ثم ينتهى إلى الذوق الشخصى الذى هو مرجعنا الأخير فى دراسة الأدب .

٢ – النقد وضع مستمر للمشاكل ، فلكل جملة أو بيت مشكلته التى يجب أن نعرف كيف نراها ونضعها ونحكم فيها ، وهذا هو النقد الموضعى كما رآه عبد القاهر .

٣ – الحكم على النظم هو النظر فى المعنى منظوما والذوق هو الفيصل الأخير فى الحكم على هذه الدقائق ، وإلى هذا فطن عبد القاهر بحسه الأدبى الصادق . ويتحكم الذوق عند عبد القاهر فى نظم المعانى التى تعبر عنها .

٤ – وتسوق فكرة النظم عبد القاهر إلى تخطى الإعراب والجملة البسيطة إلى الجملة المركبة . فعنى بها من حيث الجودة ونقدها نقدا أدبيا .

٥ – إحساس عبد القاهر الأدبى سابق دائما لعقله .

٦ – اهتدى عبد القاهر إلى كل تلك الحقائق – التى وإن يكن فى تفكير اليونان القدماء ما يمشايها ، كما أن فى علم اللسان الحديث ما يؤيدها – فالفضل الأكبر فى الوقوع عليها لمواهب عبد القاهر الفطرية .

٧ – ليس لنظرية عبد القاهر فى النظم من القيمة ما لتطبيقاته . فهناك يظهر ذوقه

---

(١) ٨ الدلائل .

(٢) فى الميزان الجديد لمندور الطبعة الثانية .

العربى السليم ، ذلك الذوق الذى لايمكن أن يغنى عنه فى الأدب شىء ، وما نظرية عبد القاهر فى رمزية اللغة ورد المعانى إلى النظم وما منهجه فى نقد النصوص نقدا موضعيا إلا مراحل تنتهى به إلى الذوق الذى يدرك الدقائق ويحس بما تحيط به المعرفة ولا تؤديه الصفة » .

هذا وقد أطلق السكاكى (٦٢٦هـ) صاحب المفتاح على أصول النظم وأبوابه ومسائله علم المعانى « وأخذ قواعده » كما أخذ فروعه من كتاب دلائل الإعجاز .

***

ومصادر فكر عبد القاهر البلاغي عديدة :

فلقد تأثر عبد القاهر فى كتابيه .. الأسرار والدلائل . بكثير من علماء البلاغة والبيان قبله :

١ - فقد أفاد من « المبرد » ودراساته فى الكامل كثيرا ، واقتبس منه آراء فى البلاغة ، كما أخذ عنه شواهد كثيرة ، واستدل بآرائه فى الدلائل .

٢ - وفكرة قرب الشبه فى الاستعارة موجودة فى نقد الشعر لقدامة . أخذها عن القدماء ، وسار عليها العسكرى والآمدى وصاحب الوساطة ، وتبعهم عبد القاهر فى الأسرار والدلائل .

وقد أورد عبد القاهر رأى قدامة فى أن « أعذب الشعر أكذبه ، وحلله وشرحه » .

وعرف عبد القاهر الكناية بنفس تعريف قدامة .

يظهر فى الأسرار والدلائل أثر بلاغة أرسطو المترجمة فى كتابى الخطابة والشعر اللذين ترجمهما ابن سينا فى الشفاء وترجمهما غيره ، وقد اقتبس عبد القاهر من هذه الترجمات وتأثر بها :

(أ) فقد أخذ منها ما كتب فى بلاغة التجنيس ، من أنه وقد أعاد اللفظة يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها .

(ب) واخذ فكرة أن الاستعارة قد تكون استعارة من التشبيه وقد تكون من الضد .

(ج) وبناء الشعر على التخييل الذى بسطه عبد القاهر نظرية لارسطو فى كتابه الشعر .

(د) وقرب الشبه فى الاستعارة أول من تكلم عنه أرسطو فى كتاب الخطابة ، وقد بسط عبد القاهر الكلام فيه ، كما تكلم عليه قبله الكثيرون .

وللآمدى أثر فيما كتبه عبد القاهر :

فقد نقل عبد القاهر كلمة للآمدى فى بيتين للطائيين ، واستدل بها فى أسرار البلاغة على ما أراد ، ثم نقدها فى دلائل الإعجاز . وكذلك نقل كلمة عن معنى الاستعارة عند الآمدى .

ونهج عبد القاهر نهج الآمدى فى تعليقه على كثير من الأبيات فى الاستعارة . كأبيات لبيد وزهير وأبى ذؤيب فى الاستعارة المكنية وسواهم .

ويخص عبد القاهر النظم بمزية البلاغة ، كما ذهب إليه الآمدى ومن قبله الجاحظ .

عبد القاهر والقاضى الجرجانى :

نشأ الرجلان فى جرجان ، وعاش أولهما فى القرن الرابع (توفى سنة ٣٩٢هـ) ، والثانى فى القرن الخامس (توفى عام ٤٧١) وكانت نشأة عبد القاهر فى جرجان موطن القاضى الجرجانى ، وتأثره بيئاتها ، وتثقفه على أساتذتها وقراءته فى مؤلفات علمائها ، واتجاهه إلى الثقافة الدينية والأدبية التى اتجه اليها القاضى ، وتأثره بها ، واستعداده من معينها .

ويتجلى أثر الوساطة بوضوح فى كتابى عبد القاهر : الدلائل والأسرار ، فكثيرا ما يقتبس من آرائهما . أو يأخذها قضية مسلمة يبنى عليها ويستدل بها .

فكلام عبد القاهر فى المعانى « وزيادة شاعر على آخر فيها » وكذلك حديثه عن السرقة ومظاهرها وما تقع فيه من المعانى ، إلى غير ذلك مما نراه فى الدلائل وفى الأسرار ، كل ذلك قد تأثر فيه عبد القاهر بالقاضى ... والاتفاق فى الغرض ، وعموم الدلالة لايعد سرقة عند عبد القاهر ، وقد أفاض فى ذلك من قبل القاضى الجرجانى ، وعاب ابن يموت . فى رميه أبا نواس بالسرقة فيما اتفق هو وغيره فيه فى عموم الدلالة .

والاستعارة . وتقريب الشبه فيها . فكرة ذكرها عبد القاهر . كما ذكرها الجرجانى وفى الحق أن قدامة قد ألم بها فى نقد الشعر متأثرا بخطابة أرسطو فيها ... ونقل عبد القاهر نفس تعريف القاضى للاستعارة ، مما نراه فى الوساطة .

ونقل عنه عبد القاهر نقده لبيت ابن المعتز :

بيـــاض فى جوانبـــه احمرار كما احمرت من الخجل الخدود

وسلمه له .

وأثر التعقيد اللفظى فى النفس أفاض فى الحديث عنه القاضى ، وكتب فيه عبد القاهر متأثرا كل التأثر به . وقد سبقهما الجاحظ إلى الحديث عنه فى بيانه ، وألم به الآمدى الماما فى موازنته ... ورأى عبد القاهر فى أبى تمام والنعى عليه لإغرابه هو رأى القاضى ، وكذلك رأيه فى البحترى والاشادة بطبعه ، وعلى العموم فتأثر عبد القاهر فيما كتبه عن التعقيد بما كتبه القاضى من قبل عنه فى وساطته واضح بين .

واستدل عبد القاهر على أن أسلوب زيد الأسد . والأرجح فيه أن يكون تشبيها برأى القاضى .

كما ينقل عنه فى مواضع كثيرة أخرى فى كتابيه الأسرار والدلائل :

نقل عنه أن بيت أبى نواس : « خليت والحسن تأخذه الخ » مأخوذ من بيت بشار :

خلفت على مـــافى غير مخير هو أى ولو خيرت كنت المهذبا

وتكلم القاضى عن سر القطع فى بيت المتنبى : « جللا كما بى فليك التبريح الخ ، ولعل عبد القاهر سار على طريقته فى بيان بعض أسرار الفصل . وباب الفصل والوصل أصل تسميته موجود فى كتاب الجاحظ حيث يقول : البلاغة عند الفارسى هى معرفة الفصل من الوصل ، وقد نقل عبد القاهر هذه الكلمة فى الدلائل .

وقد تأثر عبد القاهر بصاحب الصناعتين أبى هلال العسكرى :

فقد نقل عنه كلمته التى ذكر فيها مناقشة البحترى لابن الرومى فى بيت أبى نواس :

ولم أدر من هم غير ما شهدت لهم بشرقى ساباط الديار البسابس

وأنه مأخوذ من بيت لأبى خراش الهزلى ... ونقل عنه كثيرا غير ذلك .

ونقد رأى أبى أحمد العسكرى – وهو من أسرة صاحب الصناعتين – فى تسميته التمثيل بالمماثلة .

وقد أخذ عبد القاهر بعض آرائه عن علماء النحو .

(أ) نقل كثيرا عن سيبويه :

١ – فقد نقل عنه سحر بلاغة التقديم .
٢ – وان تقديم الاسم فى مثل محمد قام يفيد التنبيه .
٣ – ونقل بعض شواهد من الكتاب لسيبويه فى باب الحذف .
٤ – وأستدل بكلام سيبويه على أن « إنما » تجىء لخبر لا يجهله المخاطب .

وسوى ذلك مما تأثر عبد القاهر فيه بآراء سيبويه فى النظم وروعته .

(ب) ونقل عبد القاهر عن أبى على الفارسى كثيرا مثل :
١ – أن انما بمعنى ما والا .
٢ – وأن مثل « كراى كراكا » يجعل الأولى خبرا .

(ج) وتأثر عبد القاهر بالسيرافى فى دفاعه ضد الرأى القائل بأنه لا جدوى من التوسع فى دراسة علوم العربية ، ومناقشة السيرافى لمتى[1] فى ذلك مشهورة .

وعلى العموم فقد أفاد عبد القاهر عن سيبويه فى درساته لخصائص النظم ، وهذا ماحدا بالشيخ أحمد المراغى إلى عد سيبويه أول واضع لعلوم البلاغة .

(د) ونقل عبد القاهر عن المرزبانى صاحب المرشح أمثلة أخذ فيها الشاعر معنى من آخر . وصاغه صياغة حسنة فأستبد به .

وروى عنه شعرا لطفيل تمثل به أبو بكر .

ونقل عنه كلمة أبى نواس فى بيته « تتأبى الطير غدوته » وسبق النابغة للمعنى .

ونقل عنه جملة فى تمثل ابن الخطاب بالشعر .

(هـ)نقل عبد القاهر عن ابن قتيبة كلمة له بدون أن يشير إليه . وهى أن «من الشعر

---

(١) الامتاع والمؤانسة للتوحيدى ، معجم الأدباء ج٨ فى ترجمة السيرافى – ٢٢٥ – ٢٢٧ الأسرار .

ماحسن لفظه ومعناه ، ومنه ما حسن لفظه فقط ، أو معناه فقط ، وهى فى مقدمة الشعر والشعراء لابن قتيبة .

تأثر عبد القاهر بالجاحظ كثيرا جدا فى كتابيه الأسرار والدلائل :

١ – فما كتبه عبد القاهر عن البيان يتجلى فيه روح الجاحظ .

٢ – وذكر أخذا من الجاحظ أنواع الدلالات على المعانى .. الإشارة والخط والعقد واللفظ .

٣ – وفضيلة الكلام لنظمه لا للفظه هو روح كلام الجاحظ .

٤ – ولا يقبل من السجع إلا ما طلبه المعنى والطبع . بدون تكلف واستكراه ، وهى فكرة استمدها عبد القاهر من الجاحظ .

٥ – وجمال اللفظ ومزيته فى أن يكون مألوفا متداولا . ليس وحشيا ولا سوقيا ، هذا الكلام هو روح كلام الجاحظ .

٦ – ويحمد « من الكلام ما كان معناه إلى قلبك أسرع من لفظه إلى سمعك » وهو كلام الجاحظ ، أخذه عبد القاهر عنه .

٧ – وتعريف عبد القاهر للبلاغة ، هو روح كلام الجاحظ .

٨ – ونقل مقدمة الجاحظ للحيوان « جنبك الله الشبهة إلخ » .

ونقل عنه كلمة فى إعجاز القرآن ، وكلمة فى اختيار رواة الأخبار للبليغ من الكلام . ونقل عنه كلمة فى أن التصريح أبلغ فى النفس ، ونقل عنه رأيه فى النعى على من يقدم الشعر لمعناه .

ونقل عنه كلمة « من أضر ما يقال : «لم يدع الأول للآخر شيئا » .

ونقل عنه كلامه عن المتقعرين ، ورسالة الجاحظ إلى ابن الزيات .

بل أن كثيرا من مثل عبد القاهر وشواهده مأخوذة من البيان والتبيين ، وذلك ظاهر جلى لا داعى لذكره .

***

بين عبد القاهر وابن سنان :

عاصر ابن سنان الخفاجي (٤٦٦هـ) شيخ البلاغة والبيان عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) كما عاصر ابن رشيق صاحب العمدة (المتوفى سنة ٤٥٦هـ) .

ويغلب على الظن أن بعد مواطن هذه الشخصيات الفذة عن بعض كان سببا في عدم تأثر كل شخصية منها بالأخرى في تفكيرها في النقد وأحكام البلاغة .

فعبد القاهر عاش في جرجان ، والخفاجي في حلب ، وابن رشيق في القيروان . وألف الأول أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز ، من حيث ألف الثاني كتابه « سر الفصاحة » ، وألف الثالث كتاب « العمدة في صناعة الشعر ونقده » .

فأما الصلة الباقية بين ابن رشيق وابن سنان . فصدرها اعتماد الرجلين في تأليفهما على مصدر واحد . له أهمية وهو نقد الشعر ، فكان كتاب . العمدة وكان كتاب سر الفصاحة . تجديدا يسير حول منهج قدامة في النقد .

وللآن لا تتجلى صلة واضحة بين الخفاجي والجرجاني ، ولا يظهر أي أثر للشبه أو التأثر بين الرجلين ، اللهم إلا في مواضع قليلة :

فقد ذكر ابن سنان – كما ذكر عبد القاهر – شبهة الذين زعموا أن الحكاية هي المحكي ، ودليلهم عليها . أن الحكاية لو كانت غير المحكي بل مثله لكان من قرأ القرآن آتيا بمثله على الحقيقة ، وأجاب الخفاجي عن هذه الشبهة كما أجاب عبد القاهر في دلائله . بأن التحدي إنما وقع بفعل مثل القرآن . على الابتداء دون الاحتذاء ، والتالي للقرآن قد أتى بمثله محتذيا . فلا يكون بذلك معارضا ، وعلى هذا أيضا كان يقع التحدي بين العرب بالشعر على سبيل الابتداء .

ونرى أن ذلك مصدره هو التشابه بين الثقافة العامة في عصر الرجلين لاغير .

وعلى ذلك فلم يتأثر الخفاجي بالجرجاني ولم يتأثر الجرجاني بالخفاجي ولو أن الرجلين أطلع أحدهما على مجهود الآخر في دراسة البلاغة . لكان لذلك أثره الخطير في تحويل مناهج البحث البلاغي .

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن مؤلف الخفاجى أعمق تفكيرا وأشمل فكرة وأوسع مدى وأبلغ بيانا . من كتابى الجرجانى : الأسرار والدلائل .

ويذهب باحث إلى خلاف هذا الرأى فيقول فى ذلك ما نصه[1] :

وبعد فإنه لم يكن التأليف فى البلاغة قبل عبد القاهر قد استقل بالأبحاث البلاغية . وتخلص مما يشوبه من مواضع أخرى أدبية أو نحوية أو غير ذلك ، فكنت تجد الكتاب يحوى مسائل ليست من صميم العلم فى شيء ، وتجده غير منظم التنظيم الذى استحدث فيما بعد ، وكتاب سر الفصاحة من هذا النوع ، يذكر مسائل من صميم المعانى فيما هو من مباحث البيان ، ويقحم المسائل البديعية فى غيرها مما هى من موضوع البيان والمعانى ، ويضيف إلى ذلك نقولا أدبية ، وبحوثا هى إلى الأدب أقرب منها إلى غيره ، فنراه يتكلم عن المفاضلة بين شعر المتقدمين والمحدثين ، ويوازن بين المنظوم والمنثور ، ويذكر الكميت والطرماح وابن حكيم وعدم احتجاجهم بشعرهما ، ويتحدث عن عيب النقاد على جرير والفرزدق طول مقامهما فى الحضر إلى غير ذلك وهذا هو الطابع العام لكتاب « سر الفصاحة » وهو وإن كان متأثرا بطريقة عصره ومذهب السابقين عليه . إلا أننا حين نوازن بينه وبين عبد القاهر ، وكلاهما معاصر لصاحبه . يعيش معه فى بيئه واحدة ، وتظلهما ثقافة واحدة أو متقاربة ، نجد الثانى سبق الأول بأشواط بعيدة فى هذا المضمار ، وذلك أن الجرجانى قد استوفى أبحاثا بلاغية فى كتابه . مما خلا سر الفصاحة منها . كالمجاز المرسل والمجاز العقلى والفصل والوصل والخبر والانشاء . إلى غير ذلك مما لم يتحدث ابن سنان عنه ، وظهرت فى كتب عبد القاهر ميزات لم يتمتع بها سر « الفصاحة » ، من تخليص العلم من الأمور الأجنبية عنه ، ومن قربه إلى التحديد العلمى والتنسيق المنظم . والاستيفاء الشامل ، ولكن لعل من الإنصاف أن نلتمس للخفاجى فى ذلك عذرا ، فقد كان واليا ، ونحن وإن كنا لم نعرف مدة ولايته . إلا أنها على أى حال قد شغلت نفسه كثيرا . وقد كان الخفاجى شاعرا ، وللشاعر نزعة هى وحى الإلهام وسنوح الخاطر .

---

(١) من بحث نشره د . كامل الفقى فى مجلة الأزهر عن ابن سنان عام ١٩٤٨ .

وبعد : فلسر الفصاحة منزلة كبيرة فى البلاغة . فإذا كان ابن المعتز قد ألف كتابه البديع ، وقدامة ألف نقد الشعر ، وأبو هلال قد ألف الصناعتين وابن رشيق قد ألف « العمدة » ، فحسبنا أن نذكر ابن سنان ومؤلفه القيم (سر الفصاحة) ، فإنه حلقة بين هذه الكتب . وبين كتب عبد القاهر والسكاكى ومدرسته ، فابن سنان كان كعبد القاهر : كلاهما بنى للبلاغة العربية صرحا شاهقا تعتز به وتفتخر ، وكلاهما أقام بحوث البلاغة على نهج جديد كان أساسا لبحوث البلاغيين من بعد .

واذا كانت الفكرة الأولى عند عبد القاهر حين ألف فى البلاغة هى الوصول إلى أسرار إعجاز القرآن الكريم وحقيقته ، فإنها كذلك هى الفكرة التى كانت تسيطر على عقل ابن سنان وتفكيره ، كلا الرجلين ابتدأ بقضية الإعجاز ، وخرج منها صفر اليدين ، لم يهتد إلى أمنيته المنشودة ، ولكن ابن سنان يرى أن سر الإعجاز هو صرف اللّه الناس عن الاتيان بمثل القرآن الكريم ، وعبد القاهر يرى أن سره . هو دقائق ولطائف فى نظم القرآن الكريم . أعجزت القائلين ، وأسكتت صوت الملحدين ، أو قل . إن سر الإعجاز الدفين عنده هو بلاغة القرآن الكريم بكل ما تحتوى عليه هذه الكلمات من معان .

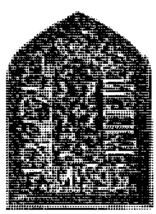
هذا . وقد تأثر السكاكى ومدرسته بعبد القاهر وآرائه البيانية إلى حد بعيد ، ويتجلى ذلك فى « مفتاح العلوم » للسكاكى وفى « الإيضاح » للقزوينى وفى سائر كتبهم . وذلك واضح لايحتاج إلى بيان .

ولم يشر ابن الأثير صاحب المثل السائرم ٦٣٧هـ إلى عبد القاهر ولكن نقل عنه جملا فى الحذف وسار على أن السجع لابد أن يكون اللفظ فيه تابعا للمعنى كما فعل عبد القاهر .

***

الفصل السابع

أنماط الأسلوبية فى أسرار البلاغة



ويكاد يكون « أسرار البلاغة » اذا استثنينا مقدمته – خاصا بأنواع المجاز والتشبيه ، من المجاز اللغوى والعقلى ، والتشبيه والتمثيل وما تحت ذلك من فروع وأقسام . وهذه كلها جوانب كبيرة الأهمية من جوانب الإعجاز .

أما المقدمة فكانت مناهضة وإبطالا لما يدعى للفظ مفردا من حسن ومزية ، واستدلالا ، على ان الفضل والنبل ، والمزية والحسن ، اذا نسبت فإنما تنتسب إلى التأليف والنظم ، وإلى مايجيء عن التصرف فيه من أغراض ومعان جمة ، وإلى استعارة وقعت موقعها . وأصابت غرضها ، وإلى ترتيب يتكامل من البيان . وتمثيل يخرج الخفى إلى العيان ، وان اللفظ مفراد لايستقل بشيء من الحسن سوى ان يكون معروفا مألوفا ، وخفيفا على اللسان سهلا ، لا وحشيا غريبا ولا عاميا سخيفا ، وما سوى ذلك مما يتوهم ان الحسن فيه عائد إلى اللفظ ، كالجناس والحشو ، والاستعارة والتطبيق ، وسائر أنواع البديع ، فالحسن فيه من قبيل المعنى لا اللفظ ، هكذا سلك الشيخ فى مقدمة الأسرار ثم ختمها بتطبيق بارع فى أبيات الرائح من الحج :

« ولما قضينا من منـى كل حاجـة ..[1] »

فأما المقصد فقد مهد له بقوله : « واعلم ان غرضى بهذا الكلام الذى ابتدأته والأساس الذى وضعته ، ان اتوصل إلى بيان امر المعانى ، كيف تتفق وتختلف ، ومن اين تجتمع وتفترق ، وأفصل أجناسها وأنواعها ، واتتبع خاصها ومشاعها ، وأبين احوالها فى كرم منصبها من العقل ، وتمكنها فى نصابه ، وقرب رحمها منه ، أو بعدها حين تنتسب عنه ... وان من الكلام ماهو كما هو شريف فى جوهره كالذهب الإبريز ، الذى تختلف عليه الصور ، وتتعاقب عليه الصناعات وجل المعول فى شرفه على ذاته ، وان كان التصوير قد يزيد فى قيمته ، ويرفع فى قدره ، ومنه ماهو كالمصنوعات العجيبة من مواد غير شريفة مادامت الصورة محفوظة عليها لم تنتقض ، وأثر الصنعة باقيا معها ليبطل قيمة تغلو ، ومنزلة تعلو وللرغبة إليها انصباب ، وللنفس بها إعجاب حتى اذا خانت الأيام فلها أصحابها وضامت الحادثات أربابها وفجعتهم فيها بما يسلب حسنها المكتسب ، بالصنعة ، وجمالها المستفاد من طريق

(١) ص٢ –١٩ أسرار البلاغة .

العرض ، فلم يبق الا المادة العارية من التصوير ، سقطت قيمتها ، وانحطت رتبتها » .

« وأول ذلك وأولاه ، وأحقه بأن يستوفيه النظر ويتقصاه ، القول على التشبيه والتمثيل والاستعارة ، فإن هذه أصول كثيرة ، كان محاسن الكلام – ان لم تقل كلها – متفرعة عنها وراجعة إليها ، كأنها اقطاب تدور عليها فى متصرفاتها ، وانظار تحيط بها من جهاتها[1] » .

ونقول إن الشيخ مبتكر كل الابتكار فى جل ما عرض له من الاستعارة وأقسامها والتشبيه وصوره والتمثيل ومواقعه ، إذ لم يعرف السابقون عليه تقسيم المجاز إلى مجاز فى الكلمة ، ومجاز فى التراكيب ، وأن الأول لغوى ، والثانى عقلى ، وأن اللغوى منه ما بنى على التشبيه ، وهو الاستعارة ، ومنه ما بنى على مناسبة أخرى غير التشبيه ، كاستعمال اليد فى النعمة ، والعين فى الربيئة ، ولا ان الاستعارة تجىء مرة فى الاسم ، ومرة فى الفعل وأن الاخيرة تجىء فى المصدر أولا ، ثم فى الفعل ثانيا :ولا أن من الاستعارة ما يكون تارة بأن تجعل الشىء الشىء وليس هو(التصريحية) كاستعمال الأسد فى الشجاع وما يكون آخر بأن تجعل للشىء والشىء وليس له (المكنية) كما جعل لبيد للشمال يدا ، فى قوله : « إذ اصبحت بيد الشمال زمامها » ، وهكذا من كل ما اهتدى إليه ، من ضروب الاستعارة وما إليها . فهو مبتدع فى هذا النهج والتنويع . مبتكر فى هذا البيان والتفصيل .

،ولانعدو الحقيقة كثيرا . اذا قلنا إن المتأخرين لم يزيدوا هنا أيضا على عبد القاهر شيئا ذا قيمة ، يمكن أن يعول عليها فى فن البديع ، لان زيادتهم كانت خلافا فى تحديد هذه الأنواع التى ابتكرها . كخلافهم فى معنى الكناية ، والاستعارة بالكناية والمجاز العقلى ، كما كانت اسرافا فى تقسيمات لاطائل تحتها . وحشدا لأبحاث فلسفية ومنطقية لا مبرر لها . وكم كان طريفا قول صاحب المطول فى تعليقه على صنع السكاكى فى هذا الإسراف فى باب التشبيه ، اذ قال : « وأعلم أن أمثال هذه التقسيمات التى لاتتفرع على اقسامها أحكام متفاوتة قليلة الجدوى . وكان هذا ابتهاجا من السكاكى باطلاعه على اصطلاحات المتكلمين . فلله در الإمام عبد القاهر . واحاطته بأسرار

(١) ص١٩ ، ٢٠ الأسرار .

كلام العرب ، وخواص تراكيب البلغاء . فإنه لم يزد فى هذا المقام على التكثير من أمثلة انواع التشبيهات وتحقيق اللطائف المودعة فيها[1] » .

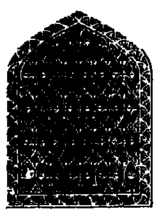
وصدق السعد فإن الإمام كما قال . كان محيطا بأسرار كلام العرب ، وخواص تراكيب البلغاء ، فلم يعن إلا بكشف لطائفها وتحقيق بدائعها ، لافى التشبيه فحسب بل فى كل ماعرض له من فنون البلاغة من نظم وبديع ، ولم يعن بالتقسيم إلا حيث يجب التقسيم ، حين تختلف صور المعنى ، وتفتن مذاهب الكلام ، ويكون لكل قسم طابعه الخاص فى الحسن ووجهته ومداخله فى التأثير . وبذلك تتفاوت الأحكام وتتفاضل الأقسام ، ويعرف المنشىء كيف يصور ويعبر ، ويرى الناقد كيف يزن ويقدر . وينظر كيف دخل الشاعر إلى المعنى وكيف خرج ، وكيف تلطف واحتال حتى جاء بالسحر الحلال .

هكذا كان – رحمه اللّه – فى دراسته وبحثه . فكان عند قوله فى المقصد ، يتتبع صور المعانى خاصها ومشاعها . وكيف تفترق وتجمع وتتفق وتختلف ، ولم يبتهج كما ابتهج السكاكى باطلاعه على اصطلاحات المتكلمين ، فيقسم الاشياء إلى مشموم ومطعوم ومرئى ومسموع .

***

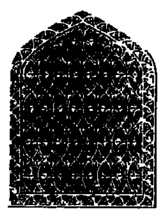


(١) اسرار البلاغة ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، والمطول بحاشية – السيد ص ٣١٩ .



الفصل الثامن

التحليل الأسلوبى للبديع البلاغى



كلمة « بديع » كانت تطلق على كل مافيه طرافة وجمال ، ونقول هنا إن ابن المعتز قد خص بهذا الإسم خمسة أنواع من سبعة عشر ، ذكرها فى كتابه « البديع » وهى الاستعارة والتجنيس والطباق ، والمذهب الكلامى ورد العجز على الصدر . وسمى ما سواها « محاسن » إلا أنه لم يعلل سر هذا التخصيص ، ولعله رأى فيها نوعا من الحسن لم يره فى غيرها ، وهو مع ذلك لم يصر على هذا الاصطلاح ، بل ترك للمعاند – على حد تعبيره – ان يسمى ما شاء من المحاسن بديعا ، ومن البديع محاسنا . أما أبو هلال فإنه لم يفرق بين « البديع » و « المحاسن » فسمى كتابه الذى ألفه فى فنون البديع « محاسن النظم والنثر[1] ، ثم ذكر فى أوله أن هذه الأنواع التى ذكرها هى التى سماها المحدثون « البديع » وأخيرا لم يرتض أحد من النقاد اصطلاح ابن المعتز ، بل شاع فى اطلاقهم وعرفهم لفظ « البديع » علما على انواعه جميعا . على قصرها فنونا من الحسن ، واصنافا من البديع ، ثم فيها من الأحكام والمتانة والقوة ماتراه ولكننى ما اظنك تجد له من صورة الطرب ، وارتياح النفس ، ما تجده لقول بعضر الأعراب :

أقول لصاحبى والعين تهوى	بنابين المنيفة فانصهار
تمتع من شميم عرار نجد	فما بعد العشية من عرار
ألا ياحبذا نفحات نجد	وريا روضه غب القطار
وعيشك اذ يحل القوم نجدا	وأنت على زمانك غير زارى
شهور ينقضين وما شعرنا	بأنصاف لهن ولا سرار
فاما ليلهن فخير ليل	وأقصر مايكون من النهار

فهو كما تراه بعيد عن الصنعة ، فارغ الألفاظ ، سهل المأخذ ، قريب التناول ، وكانت العرب انما تفاضل بين الشعراء فى الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب ، وشبه فقارب ، ومدد فأغزر ، ولمن كثرت سوائر أمثاله ، وشوارد ابياته . ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة ، ولا تحفل بالإبداع والاستعارة ، اذا ماحمل لها عمود الشعر ، ونظام

---

(١) هذا الكتاب هو المطبوع الآن فى كتاب الصناعتين تحت عنوان « الباب التاسع فى شرح أنواع البديع ص٢٠٤ .

القراضين ، وقد كان يقع ذلك فى خلال قصائدها ، ويتفق لها فى البيت بعد البيت ، على غير تعمد وقصد ، فلما افضى الشعر إلى المحدثين ورأوا مواقع تلك الأبيات من الغرابة والحسن ، وتميزها عن اخواتها فى الرشاقة واللطف ، تكلفوا الاحتذاء عليها ، فسموه « البديع » فمن محسن ومسيء ، رمحمود ومذموم ، ومقتصد ومفرط ، فإذا جاءتك الاستعارة كقول زهير :

وعرى أفراس الصبا ورواحله

وقول لبيد :

إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

وقول الحارث بن حلزة :

حق اذا التفع الظبـاء بأطـ ـراف الظلال وقلن فى الكنس

وقول ابن الطبرية :

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المحلى .الأباطح

وقول ابى نواس :

« أعطتك ريحانها العقار .....الخ

فقد جاءك الحسن والإحسان ، وقد أصبت ما أردت من إحكام الصنعة ، وعذوبة اللفظ ، فاذا سمعت بقول أبى تمام :

باشرت أسباب الغنى بمدائـح ضربت بأبواب الملوك طبولا

وبقوله :

يادهر قوم من أخدعيك فقد أضججت هذا الأنام من خرقك

فاسدد مسامعك ، واستغش ثيابك ، وإياك والإصغاء إليه ، واحذر الالتفات نحوه ، فإنه مما يصدىء القلب ويمجه ، ويطمس البصيرة ، ويكدر القريحة .

وربما جاء من هذا الباب ما يظنه الناس استعارة وهو تشبيه أو مثل ، فقد رأيت

بعض أهل الادب ذكرا أنواعا من الاستعارة عد فيها قول ابى نواس :

والحب ظهـــر أنت راكبـــه فـإذا صرفت عنانه انصرفـا

ولست ارى هذا وشبهه استعارة ، وإنما معنى البيت أن الحب مثل ظهر أو الحب كظهر أنت تديره كيف شئت اذا ملكت عنانه ، فهو إما ضرب مثل أو تشبيه شيء بشيء ، وإنما الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل ، ونقلت العبارة فجعلت فى مكان غيرها . وملاكها : تقريب الشبه ، ومناسبة المستعار له للمستعار منه ، وامتزاج اللفظ بالمعنى ، حتى لايوجد بينهما منافرة ، ولا يتبين فى احدهما اعراض عن الاخر . »[1] .

ويعنينا من هذا الكلام أمران :

١ – إنه فضل شعر الأعرابى المطبوع على شعر ابى تمام المصنوع ، مع إعجابه بصنعته وحسنه ، ومتانته وإحكامه ، ذاك لأن الكلفة بادية عليه ، وملاك الامر – كما قال فى موضع آخر – ترك التلكف ، ورفض التعمق ، والاسترسال مع الطبع . فإذا جاء البديع عفوا ، واستجاب سهلا ، كالذى رأيت فى شعر زهير واضرابه ، فهو الحسن والإحسان ، والا فاسدد دونه مسامعك واستغش ثيابك .

وقد اغفل عبد القاهر كثيرا من الفنون البديعية التى عنى بها السابقون قبله ، فلم يعرض لها و لم يشر إليها ، فى حين أنه خص جانبا منها بالبحث الواسع والتفصيل الدقيق ، وكرر الحديث عنه مرات فى الدلائل والأسرار ، كالاستعارة والتمثيل ، والمجاز والكناية ، فهل لذلك من سر ؟ ؟

نعم إن لذلك لأسرارا :

فقد كان الشيخ فى كتابيه يبحث عن البلاغة العالية ، والبيان الساحر ، وعن الصنعة الفاخرة ، والنظم البارع ، وأين يكون الحسن والإحسان ، والإبداع والافتنان ، وما خصائص الجودة ، ومظاهر البراعة ؟ أو بعبارة اخرى ، كان يبحث عن « دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة : ومن رام مثل هذا المطلب كان بمنأى عن

(١) الوساطة ص ٣٧ – ٤٣ .

الجمع والاستقصاء ، وأبى عليه كبرهمه ان يحشد ما يوزن وما لايوزن فى معرض ، وأن يجمع الغالى والرخيص فى قرن . وما من شك فى ان فنون البديع متفاوتة أبعد تفاوت وأن منها ما يغلو ثمنه ويعز مطلبه ، ومنها ماهو دون ذلك على مسافات وأميال . والفارق بين ظاهر بين الاستعارة والتمثيل مثلا وبين العكس ورد الأعجاز على الصدور ، والإرصاد .

تلك وجّهة ، وهناك ثانية هى ان الشيخ لم يغفل ما أغفل لنزوله عن مستوى نظرته فى البلاغة فحسب ، بل كان إلى جانب ذلك اعتماده على ما كتب السابقون فيه ، فقد رآهم استقصوا ماترك ، ووفوه حقه من البحث والبيان . فلم ير حاجة إلى التكرار والإعادة .

ومع هذه وتلك ثالثة ، وإن ما ذكره الشيخ من ذلك فى كتابيه إنما كان وثيق الصلة بقضية اللفظ والمعنى ، فكان من الحتم ان يجره الحديث عن هذه القضية إلى الحديث عن هذه الأنواع ، وأن يبين الأمر فيها لاشتهارها وقوة اتصالها بتلك القضية . فقد وجد دعاة اللفظ يقولون : إن حسن الاستعارة والجناس واكثر فنون البديع ، راجع إلى اللفظ وحده ، وقد رأينا فيما سبق كيف زيف الشيخ هذا الزعم ، ورد اكثر الحسن فى الاستعارة التى مايعود عليها من جهة النظم ، وانه يهيىء لوقعها ، ويمهد للطفها وغرابتها[1] .

وكان القاضى وأبو هلال والآمدى ينظرون إلى البديع نظرا ادبيا خالصا ، يستحسنون منه ما وافق الطبع ، وحرك الأريحية ، ويزرون على المتكلف المجتلب ، فلم يبلغ بهم العمق إلى ان يقولوا : هذا حسن لفظى ، وذاك معنوى . فلما تبدلت الأمور ، وتغيرت البيئة ، واحترف الأدب كثير من ادعياء الأدب ، قامت فى رءوسهم أوهام ، وشاعت فى السنتهم نظريات ، وتعصب فريق للفظ ينحله الفضل كله ، واخر للمعنى يعطيه الشرف والمنقبة ، فاقتحم الشيخ عليهم الباب وامطرهم من قلمه بيانا عجبا ، وطارد الشبه انى جاءت ، وحارب الأوهام كيف كانت ، حتى نصر الحق ، وأقام الحجة ورفع المنار .

---

(١) ص٧٤ من الرسالة .

بل لقد تأثر الخفاجي – وهو الأديب الناقد الشاعر – إلى حد مابهذه النظريات فى كتابه « سر الفصاحة » فسلك فيه مسلكا يدل على مقدار احترامه لها واهتمامه بها . فجعل الفصاحة من حظ اللفظ وحده ، والبلاغة من حظ اللفظ والمعنى معا[١]، وقسم فصاحة اللفظ إلى فصاحة فى المفرد ، وفصاحة فى التركيب[٢] . ثم قسم بلاغة الكلام إلى ما يخص المعانى مفردة[٣] وما يعم المعانى والالفاظ مشتركة[٤] ، فكان مما ذكره من شروط الفصاحة : المناسبة بين الألفاظ « وقد قسم هذه المناسبة قسمين : مناسبة عن طريق الصيغة ، وأخرى من طريق المعنى . وجعل من القسم الأول : السجع والازدواج والجناس والترصيع[٥]، كما جعل من الثانى : الطباق والمقابلة والسلب والايجاب والعكس[٦] .

إلا أن الخفاجي كان يتدارك – إلى حد ما – ظاهر ما يوهمه هذا التقسيم والتحديد من استثناء اللفظ بما استقل به من غير شرك للمعنى فيه ، أو عكس ذلك من استثناء المعنى بدون اللفظ . فنص على ان المناسبة التى هى من طريق الصيغة كالجناس والسجع وما إليها ، لابد أن ينصرها المعنى ويؤيدها فقال فى السجع ، بعد أن حكى الخلاف فيه :

« والمذهب الصحيح أن السجع محمود اذا وقع سهلا متيسرا بلا كلفة ولا مشقة . وبحيث يظهر أنه لم يقصد فى نفسه . ولا احضره الا صدق معناه ، دون موافقة لفظة[٧] » .

أما عبد القاهر فان نظره العالى ، وذوقه الرفيع ، لم يقف من البديع عند هذا الحد ، ولم يقنع منه بأن يجىء مطبوعا فحسب ، بل رأى أن لابد ان يكون له وراء

---

(١) سر الفصاحة ص٥٥ .

(٢) ص٦٠ ، ٨٥ .

(٣) ص٢٢٣ .

(٤) ص١٠٣ .

(٥) ص١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٨١ ، ١٨٣ .

(٦) ص١٨٨ ، ١٩٢ .

(٧) ص ١٦٣ .

ذلك نكتة تطلب ، وعائدة على المعنى تراد وتقصد ، ترفع من شأنه وتفخم من قدره ، ويقترن حظه من الفضل بحظها ويجيء حسنه من حسنها ، وإلا كان حمل اللفظ على البديع منقصة وشينا ، وصار اعفاؤه ، منه فضلا وحسنا .

قال فى مقدمة أسرار البلاغة ، وهو يتحدث عن اللفظ والمعنى : « وههنا اقسام قد يتوهم فى بدء الفكرة وقبل اتمام العبرة ، ان الحسن والقبح فيها لا يتعدى اللفظ والجرس ، إلى ما يناجى فيه العقل والنفس ، ولها – اذا حقق النظر – مرجع إلى ذلك ، ومتصرف فيما هنالك ، منها التجنيس والحشو .

أما التجنيس فإنك لاتستحسن تجانس اللفظين إلا إذا كان وقع معنيهما من العقل حميدا ، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدا . اتراك استضعفت تجنيس ابى تمام فى قوله :

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت   فيه الظنون أمذهب ام مذهب

وقول المحدث :

ناظراه فيما جنى ناظراه   أودعانى امت بما أودعانى

لأمر يرجع إلى اللفظ ؟ ام لانك رأيت الفائدة ضعفت فى الأول ، وقويت فى الثانى ، ورأيتك لم يزدك بمذهب ومذهب على ان اسمعك حروفا مكررة ، تروم لها فائدة . فلا تجدها إلا مجهولة منكرة ، ورأيت الآخر قد اعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أداها ، ويوهمك كأنه لم يزدك ، وقد أحسن الزيادة ورفاها ؟ فبهذه السريرة صار التجنيس وخصوصا المتوفى منه ، المتفق فى الصورة من حلى الشعر ، ومذكورا فى اقسام البديع[1] .

فانظر إلى عبد القاهر ، كيف جعل الجناس بهذا التخييل البديع . يعود إلى جانب المعنى ومن قبيل ما تدرك لذته بالوجدان والفكر . لا باللفظ والجرس وذلك بما تتوهمه النفس بدئيا بتكرار اللفظ ، من أنه لاجديد إلا كد الإعادة والترديد ، فإذا نظرت وتأملت ، وجدت من الجديد ما يروق ويعجب ، ويهزها اريحية ويملؤها غبطة .

---

(١) أسرار البلاغة ص٤ ، ٥ .

وليس من شك ان المعانى اذا وردت على القلب هذا الورد ، فطالعته بعد أن خادعته هيأت لمكانها اعظم موقع ، وحشدت لاستقبالها أكرم حفاوة ، فجاءت كالأمل يقبل بعد يأس ، والوصل يدنو بعد قطيعة ، فأين من هذه اللذة لذة البيان بعد الإبهام ، والتفصيل بعد الاجمال والتصريح بعد التلميح ؟ ؟ .

ثم قال فى الحشو والاستعارة وبقية أنواع البديع : وأما الحشو فانما كره وذم ،وأنكر ورد ، لانه خلا عن الفائدة ، ولم يحل منه بفائدة ، ولو أفاد لم يكن حشوا ، ولم يدع لغوا ، وقد نراه مع اطلاق هذا الكلام عليه واقعا من القبول احسن موقع ، ومدركا من الرضى اجزل حظ . ذاك لإفادته اياك من مجيئه مجىء مالا يعول فى الإفادة عليه ، ولا طائل للسامع لديه ، فيكون مثله مثل الحسنة تأتيك من حيث لم ترتقبها ، والنافعة اتتك ولم تحتسبها ، وربما رزق الطفيلى ظرفا يحظى به ، حتى يحل محل الأضياف الذين وقع الاحتشاد لهم ، والأحباب الذين وثق بالإنس منهم وبهم .

وأما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع ، فلا شبه ان الحسن والقبح لا يعترض الكلام بهما إلا من جهة المعانى خاصة من غير أن يكون للألفاظ فى ذلك نصيب . أو يكون لها فى التحسين أو خلاف التحسين تصعيد وتصويب[1] » .

وهكذا عمد الشيخ إلى أعرق فنون البديع فى شبهة اللفظ وادناها إلى تصوير الخطأ فيها من الخاصة بله العامة ، وهى التجنيس والحشو وما يجرى مجراهما ، مما يصعب فيه التمييز ويدق الالتباس فجعل حسنها عائدا إلى المعنى بما تثيره فى النفس من ضروب التخييل والتوهم ، وبما تبعثه فيها من الإقبال بعد الإعراض ، ومن الأنس بعد الوحشة .

وإذا كان ذلك هو مبعث الحسن فى تلك الفنون فقد نزلت من البلاغة فى أكرم منزل ، وحظيت من الحسن باوفر نصيب ، وان هذا التخييل والتوهم باب من ابواب البلاغة الأصيلة ، وضرب من ضروب البيان الساحر ، وفن لاتكاد شعبه تنتهى اتساعا ، فنرى فى باب الحذف « تخييل العدول إلى اقوى الدليلين » و « ايهام صون

---

(١) ص١٤ ، ١٥ الأسرار .

اللسان عن الذكر ، أو صون المحذوف عن اللسان » ، وترى فى باب التقديم « ايهام أن المقدم لايزول عن الخاطرة ، وانه نصب العين ابدا ، وايهام الاستلذاذ به » وهكذا فى كثير من فنون النظم وخصائصه . واذن قد عاد حسن الجناس وما إليه حسنا ذاتيا ، كالحسن فى الحذف والذكر والتقديم والتأخير سواء . وليس كما يقول انصار الذات والعرض ، ان الحسن فيها عرض زائد ، كما سترى بعد . بل إن الشيخ ليعتبر تخييل الجناس أصلا يقيس به ،ويعتمد فى الإحالة عليه ، قال فى التشبيه المعكوس .

« وقد يقصد الشاعر على عادة التخييل أن يوهم فى الشيء ، هو قاصر عن نظيره فى الصفة ، انه زائد عليه فى استحقاقها واستحباب ان يجعل اصلا فيها فيصح على موجب دعواه وشوقه إلى ان يجعل الفرع اصلا ومثاله قول محمد بن وهيب :

وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح

فهذا على انه جعل وجه الخليفة كأنه اعرف واشهر واتم وأكمل فى النور والضياء من الصباح ، فاستقام له بحكم هذه النية ان يجعل الصباح فرعا ، ووجه الخليفة أصلا . وأعلم ان هذه الدعوى وان كنت تراها تشبه قولهم : لايدرى أوجهه أنور أم الصبح ؟ وغرته اضوأ أم البدر ؟ وقولهم اذا افرطوا : نور الصباح يخفى فى ضوء وجهه ، أو نور الشمس مسروق من جبينه ، وما جرى فى هذا الأسلوب من وجوه الإغراق والمبالغة فإن فى الطريقة الأولى خلابة وشيئا من السحر ، وهو انه كأنه يستكثر للصباح ان يشبهه بوجه الخليفة ويوهم انه قد احتشد له ، واجتهد فى طلب تشبيه يفهم به امره . وجهته الساحرة انه يوقع المبالغة فى نفسك من حيث لاتشعر ، ويفيد لها من غير ان يظهر ادعاؤه لها ، لأنه وضع كلامه وضع من يقس على اصل متفق عليه ويزجى الخبر عن امر مسلم ، لاحاجة فيه إلى دعوى ، ولا اشفاق من اختلاف مخالف ، وانكار منكر ، وتجهم معترض ، وتهكم قائل : له . ومن أين لك ذلك ؟ والمعانى اذا وردت على النفس هذا المورد كان لها ضرب من السرور خاص ، وحدث بها نوع من الفرح عجيب ، فكانت كالنعمة لم تكدرها المنة ، والصنيعة لم ينقصها اعتداد المصطنع لها .

وفى هذا الموضع تشبيه بالنكتة التى ذكرتها فى التجنيس ، لانك فى الموضعين تنال الربح فى صورة رأس المال ، وترى الفائدة قد ملأت يدك من حيث حسبتها قد

جازتك واضلتك ، وتجد على الجملة الموجود من حيث توهمت العدم[1] .

فقد جعل الشيخ بلاغة التشبيه المعكوس ، تشبه بلاغة التجنيس . ففى أى موضع قد وضع الشيخ بلاغة التجنيس ؟

فإذا اضفنا هذه الفنون التى ذكرها الشيخ هنا ، إلى تلك التى ذكرها هناك لنفى النظام ، وجعلها فى أعلى درجات البلاغة ، من المزاوجة والمقابلة والتقسيم والجمع ، استطعنا أن نقول : إن هذه الفنون البديعية أصل كبير من أصول البلاغة الذاتية على حد تعبيرهم ، وان لها قيمتها وخطوها فى تصوير المعنى واداء الغرض ، وإنها تقوم فى البلاغة على عمد من جنس ما تقوم عليه خصائص التركيب من تقديم وتأخير ، وحذف وذكر ، وتأكيد وتجريد ، وابهام وبيان ، واجمال وتفصيل ، وإنهما سواء فى قوة التأثير وروعة التصوير وما البلاغة إلا ذلك التصوير والتأثير .

***

(١) اسرار البلاغة ١٩٤ ، ١٩٥ .

— ٢ —

ولعل من العجب البالغ أن يجعل البلاغيون الجناس فى صدر البديع اللفظى ، بعد أن انفق الشيخ جهدا بالغا فى ابطال ان يكون حسنه من قبيل اللفظ ، وبعد ان أقام الحجة القارعة على ان الحسن فيه راجع إلى المعنى ، حتى يجعل نكتته فى التخييل والتوهم ، اصلا قاس عليه نكتة التشبيه المعكوس . وقد رأيت ان هذه النكتة أعلى وأروع من كثير من نكات الحذف والذكر ، والتقديم والتأخير مما مرده إلى التخييل والتوهم .

فهلا – وقد رأوا أن لابد من الخلاف – ردوا على الشيخ حجته . وزيفوا له فكرته ؟ ؟ لا إنهم لم يردوا له حجة ، ولم يقتحموا عليه باب نقاش . بل لم يشيروا إلى أنهم خالفوا ، فكأنهم لم يقرأوا ما كتب الشيخ فى ذلك ، أو كأن رأيه من القلة والفساد ، بحيث لايستحق ان يشار إليه .

واطرف من هذا ، ان يغفلوا نكتة الشيخ هذه فى الجناس ، حتى يجىء السبكى ، فينقل عن صاحب « كنز البلاغة » انه قال : ولم أرمن ذكر فائدة الجناس ، وقد خطر لى أنها الميل إلى الإصغاء إليه .

وقال فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ (٢٢ – النمل) : إن هذا من جنس الكلام الذى سماه المحدثون البديع ، وهو من محاسن الكلام الذى يتعلق باللفظ ، بشرط أن يجىء مطبوعا ، أو يصنعه عالم بجوهر الكلام ، يحفظ معه صحة المعنى وسداده .

ولقد جاء ها هنا زائدا على الصحة ، فحسن وبدع لفظا ومعنى . إلا ترى أنه لو وضع مكان (بنبأ) بخبر . لكان المعنى صحيحا ، ولكنه كما جاء أصح ، لما فى النبأ من الزيادة التى يطابقها وصف الحال (٢ /١٤٢ – الكشاف) .

وقال فى تفسير الآية الكريمة : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي ﴾ (٤٤ – هود) إن علماء البيان استفصحوا هذه الآية : ورقصوا لها رؤوسهم ، لا

لتجانس الكلمتين وهما ابلعى وأقلعى ، وذلك وان كان لايخل الكلام من حسن . فهو كغير الملتفت إليه بازاء المحاسن التى هى اللب وماعدها قشور ، وقد يين محاسن الآية (١ /٤٤١ الكشاف) .

الطباق :

فى الآية الكريمة : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٣ البقرة) السفه وهو الجهل ، فكان ذلك العلم معه أحسن طباقا له (١ /٢٧ الكشاف) .

تأكيد المدح بما يشبه الذم :

قال فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ (٨ البروج) ..

وما عابوا منهم وما أنكروا إلا الإيمان ، كقوله :

ولاعيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

وقال ابن الرقيات :

وما نقموا من بنى امية إلا ... أنهم يحلمــون ان غضبـــوا

(٢ /٥٣٥ الكشاف)

اللف والنشر :

هو ذكر متعدد على التفصيل أو الإجمال ، ثم ذكر ما لكل واحد من آحاد هذا المتعدد من غير تعيين ، ثقة بأن السامع يرد كل شىء إلى ما هو له ، معتمدا على قرينة لفظية أو معنوية .

ذكر عند تفسير قوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١٨٥ البقرة) :

ان قوله تعالى : ﴿ **لتكملوا** ﴾ علة الأمر بمراعاة العدة و﴿ **لتكبروا** ﴾ علة معالم من كيفية القضاء والخروج عن عهدة الفطر ﴿ **لعلكم تشكرون** ﴾ علة الترخيص والتيسير ، وقال إن هذا نوع من اللف لطيف المسلك ، لايكاد يهتدى إلى تبينه إلا النقّاب المحدث من علماء البيان (١ /٨٩ الكشاف) .

المشاكلة :

هى ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته ، نحو قول الشاعر :

قالوا اقترح شيئا نجد لك طبخه قلت اطبخوا لى جبة وقيمصا

أى خيطوا ، وذلك خياطة الجبة بلفظ الطبخ لوقوعها فى صحبة طبخ الطعام . ومنه قوله تعالى : ﴿ تَعْلَمُ مَافِى نَفْسِى وَلَآأَعْلَمُ مَافِى نَفْسِكَ ﴾ حيث أطلق النفس على ذات الله تعالى ، لوقوعه فى صحبة نفسى .

وقد ذكر الزمخشرى فى تفسيره للآية الكريمة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ (البقرة : ٢٦) أنه يجوز ان يقول الكفرة : أما يستحى رب محمد أن يضرب مثلا بالذباب والعنكبوت ؟ فجاءت على سبيل المقابلة ، واطباق الجواب على السؤال ، وهو فن من كلا مهم بديع ، وطراز عجيب ، منه قول ابى تمام :

من مبلغ أفناء يعرب كلها انى بنيت الجار قبل المنـزل

وشهد رجل عند شريح فقال : انك لسبط الشهادة ، فقال الرجل : انها لم تجمد عنى : فقال الله بلادك وقبل شهادته . فالذى سوغ بناء الجار ، وتجميد الشهادة هو مراعاة المشاكلة ، ولولا بناء الدار لم يصح بناء الجار ، ولولا سبوطه الشهادة لامتنع تجميدها . ولله در أمر التنزيل واحاطته بفنون البلاغة وشعبها ، لا تكاد تستغرب منها فنا إلا عثرت عليه فيه على أقوم مناهجه ، وأسد مدارجه (١ /٤٥ الكشاف) .

وقال فى تفسير الآية الكريمة : ﴿ تَعْلَمُ مَافِى نَفْسِى وَلَآأَعْلَمُ مَافِى نَفْسِكَ ﴾ (١١٦المائدة) :

المعنى تعلم معلومى ، ولا أعلم معلومك ، ولكنه سلك بالكلام طريق المشاكلة ، وهو من فصيح الكلام وبينه » (١ /٢٨١ الكشاف) .

وقد نقل كلام الزمخشرى بهاء الدين السبكي فى كتابه (عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح (٤ /٣١٢ شروح التلخيص)) .

الإيغال :

واذا اقتضى المقام الإطناب بالإيغال ، واحتاجت الخنساء ان تكمل بيتها فى اخيها صخر :

وإن صخرا لتأتم الهداة بـه　　كأنــه علـم فى رأسه نــار

فجاءت بنكتة يتم المعنى بدونها لتزيد فى المبالغة بالمدح . كانت هذه الزيادة واجبة ، وكانت من صميم البلاغة وأصل الحسن ، ثم اذا اقتضى المقام التمثيل ، او الاستعارة لاداء هذه المبالغة ، لم يكن شيء من ذلك واجبا ، ولا من أصل البلاغة والحسن له لأن الإيغال لم يكن سيء الحظ ، فيدخل فى باب اختلاف الدلالة على المعنى الواحد ، كما دخلت فيه الاستعارة والكناية والتمثيل .

وايضا لو اقتضى المقام لطف التعليل لتقرير المعنى والاحتجاج له وتطييب النفوس به ، أو اقتضى المبالغة المقبولة لترويج المعنى . لم يكن ذلك واجبا ، كما وجبت زيادة المبالغة فى الإيغال ..

وهل ذكرهم التجريد ، وحسن التعليل فى فن البديع ، يخرجهما عن أن يكونا من مباحث علم البيان بابتنائهما على التشبيه ؟ فقول ابى تمام :

لاتنكرى عطل الكريم من الغنى　　فالسيل حرب للمكان العالى

ترى أى فن احق به من الاخر ؟ وهل تستطيع ان تعده من البديع لما فيه من حسن تعليل ، ثم تدفعه عن البيان مع مافيه من تشبيه ؟ بل لاسبيل إلى جحد ان يعد من المعانى ، لما اشتمل عليه هذا التعليل من تأكيد للمعنى وتقرير ، ومازال عنه من الوحشة والغرابة والاستبعاد ، ولو انك قلت لأنصار الذات والعرض : هبوا الشاعر قال الشطر الأول وسكت فلم يعلل . أكان الذى يضيع من المعنى شيئا ،

عرضيا زائدا فحسب ، فماذا كان يكن الجواب ؟ وماذا كنت ترى من قيمة إذ ذاك لو بقى الشطر الأول هكذا عاريا حائرا ؟ ومثل ذلك تماما قوله :

ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا   إن السماء ترجى حين تحتجب

وتأكيد المدح بما يشبه الذم :

ثم انظر إلى تأكيد المدح بما يشبه الذم ، من أين جاءه الحسن وهجم عليه الظرف ؟ فانك لاترى شيئا من ذلك لم يكن طريقه معانى النحو ، لأن الاستثناء هو محض سره ، وباعث نثره ، فان المعروف فى الاستثناء ان ما بعد الأداة يخالف ما قبلها معنى وحكما ، وهناك قد خولف هذا الشرط واطرح . وجاء ما بعد الأداة موافقا لما قبلها ، فالاستثناء قد أوهم المخالفة ولا مخالفة ، بل هى الألفة والموافقة فكان استثناء ولااستثناء ، ووفاقا فى صورة خلاف ، ووصالا فى زى قطيعة .

وهكذا اذا نحن استقرينا فنون البيان والبديع ، وجدنا اكثرها من هذا القبيل ، ووجدنا لمعانى النحو فى حسنها حظا ليس بالقليل .

فالعلماء حين قالوا إن هذه الفنون اذا اقتضاها المقام . كانت من علم المعانى ، لم يقولوا إلا الحق . وما يشهد به الواقع كما رأيت ، وذلك هو الذى فعله رب الطبع ، والذوق ، واستاذ البلاغة الأول . حين ذكر كثيرا من فنون البيان والبديع فى دلائل الإعجاز ، وجعلها فى أعلى مراتب النظم ودرجات البلاغة .

ولسنا ندعى أن أنواع البديع كلها سواء فى البلاغة والحسن ، بل نكرر ماقلناه كثيرا ، انها طبقات متفاوته ، وان منها مايعلو قدره ، وتغلو قيمته ، ومنها ماهو دون ذلك كثيرا ، وان ذلك كان السر فى تعرض الشيخ لبعض منها دون بعض . ثم إذا أردت أن تعرف ذلك صدقا ، وأن منها مالا حظ له فى جمال ولا أثر فى بلاغة ، فارجع إلى ماامستدرك به السبكى على الخطيب ، من فنون ذكرها فى شرحه للتلخيص[1] واكثرها من اختراع هذا العصر الأخير . فإن أردت اعجب مما ذكر السبكى فهناك كتاب جمعه الشيخ الحملاوى ولخصه من كتب المتأخرين وهو كتاب « زهر الربيع » الذى يدرس اليوم فى اقسام الأزهر الثانوية ، ففيه نرى شيئا كثيرا

(١) ج٤ ص٤٦٧ ... من شروح التلخيص . ثم المطول مع السيد ص ٤١٦ .

لاقبل للبلاغة ولا لأساليب العربية باحتماله . بل لاجلد للذوق على الاستماع إليه .

ثم نعود فنقول . لم يكن تنويع علوم البلاغة إلى انواعها الثلاثة الا مواضعة واصطلاحا ، ولم تكن نظرية الدلالات وما تولد منها ولا نظرية الذاتى والعرضى ، والأصلى والكمالى ، الا فلسفة لا تتصل بالبلاغة بسبب ، ولا تحظى من شهادة الذوق بشىء ، ولا يجد العقل سبيلا إلى الاعتراف بها . فلم تكن الا ظنا وتوهما قد استحكم ، بنوا هم عليه بناءهم على الأصل المحكم فكان مثلهم فى ذلك مثل النظام ، فيما يحكى عنه تلميذه ، الجاحظ ، أنه كان يتوهم الشىء توهما فيقيس عليه ويفرع عنه ، ثم يتعصب لنتيجة القياس والتفريع ، تعصبه للشىء الثابت المقرر ، من غير أن يذكر أن الأصل الذى قاس عليه كان ظنا وتوهما .

وليس هناك من فرق بين فن وفن ، حين يقتضيه المقام ، ويدعو إليه موقف الخطاب ، وهذه الفنون جميعها ، اذا أحسن لها اختيار موضعها . وأصيب بها عين موقعها كانت كلها سواء فى باب الحسن ، وجلال القدر ، وجمال الوقع ، وقوة التأثير .

ثم انت ترى بعد هذا الذى قدمنا ، وبعد ان انهارت تلك النظريات الوهمية ، انه لم يعد هناك كثير فائدة فى تقسيم بديع الأوائل ، إلى بيان وبديع . ولا إلى تقسيم البديع إلى لفظى ومعنوى ، مع اعترافهم بأن اللفظى لابد ان ينصره المعنى ، فلا ينفر منه ولا يكره عليه . فهذا الإسراف فى التقسيم والتفريق ، لم يكن الا اثرا لتلك الفلسفة الغربية . واذ قد بطلت هذه فلا مبرر بعد لبقاء اثارها .

حسن الابتداء :

ثم انهم جعلوا حسن الابتداء والتلخيص والانتهاء ، من أذيال البديع العرضى ، وقالوا لا بأس بذكرها فى خاتمته . فلم يعطوها حظ « القلب » فى قول القائل :

مودته تدوم لكل هول   وهل كل مودته تدوم ؟

ولاحظ « التشريع » فى بناء البيت على قافيتين يصح المعنى بالوقوف على كل منهما ، كقول الحريرى :

ياخاطب الدنيا الدنيـــة إنها شرك الردى وقرارة الأكدار

مع ان البلغاء والادباء فى كل جيل وعصر ، على ان حسن الابتداء شعار التوفيق والبراعة ، وامارة الاقتدار فى باب البلاغة ، وان كثيرا من الشعر العالى قد اسقطه سوء الابتداء ، والغفلة عما يوجبه أول الخطاب ، وما ينبغى لحقه من رعاية واعتبار ، والاخبار فى ذلك كثيرة مشهورة .

واذا لم يكن مقام الابتداء من لباب البلاغة ، ولم يكن هو الجدير حقا بالرعاية والعناية ، فأى مقام بعد ذلك تطلب رعايته ، ويجتنب سوء الخطأ فيه ؟ أمقام الحذف اعتمادا على القرينة أم الحذف لرعاية الفاصلة ؟ فهلا كان الاحتفال بالابتداء لأنه أول مايقرع السمع ، ويثير انتباه النفس ، من جنس الاحتفال بالتقديم للاهتمام ، او التفاؤل او الاستلذاذ مما ذكروا فى علم المعانى ؟ ؟

ثم حسن التلخيص هلا ذكروا انه شعبة كريمة من شعب الفصل والوصل ؟ وانه باب من ترابط المعانى وتآلفها وانسجام الصور وتناسقها ؟ وانه من أجل ذلك اعز على البلاغة من كثير من مواضع الوصل بالحروف العاطفة ؟ وان توخى الصواب فيه ، لايقل شأنا عن توخى الصواب فى مواقع الواو والفاء ؟ وهلا علموا ان الارتباط بين المعانى والأغراض ، افسح مدى واوسع مذهبا من الترابط بذكر الحروف او تركها ؟ وان باب التخلص من غرض إلى غرض فيه لطائف وخيالات جمة ساحرة . ينبغى ان تكون حلية فاخرة فى جيد مباحث الفصل والوصل ؟ ؟

وهكذا شحن هذا العصر بأعاجيب فى فن البديع ، لا تنى تطالبك كلما زدته نظرا ، وأوليته عناية .. .

وهناك فكرة لهم نحب أن نعرض لها هنا ، هى انهم يشيرون او قل : يصرحون بأن بعض فنون علم المعانى قد تذكر فى الكلام من غير أن يقتضيها المقام ، فتصبح من أجل ذلك من البديع ، مثل الاعتراض والالتفات والتذييل[1] والنتيجة المحتومة لهذا القول أن فنون البديع قد تجىء فى الكلام من غير أن يقتضيها المقام ، وهذا كما ترى اثر من آثار تعلقهم بنظرية الذات والعرض ، وان البديع – ما دام عرضيا

---

(١) اليعقوبى ج١ ص٤٧٣ ، ج٣ ص٢٢٤ .

زائدا على البلاغة ، يجيء بعد مطابقة الكلام لمقتضى الحال – يقع فى الأساليب من غير أن تدعو إليه حاجة البيان، وذلك هو الخطأ كله ، لافى شأن البديع فحسب بل فى شأن البلاغة كلها ، فذكر مالا يقتضيه المقام أيا كان نوعه أو الغرض منه . يعد خطأ بحتا . وزيادة لغوا ، وكما ان تأكيد الكلام لخالى الذهن ، من غير اعتبار تنزيلى يصح ان يكون نكتة له ، يعد خطأ بلاغيا . يجب ان يعد ذكر التنزيل والاعتراض وما إليهما من إيغال والتفات ، وحسن تعليل وطباق وجناس ، وسائر فنون البديع ، خطأ بلاغيا أيضا ، اذا لم يدع إليه المقام ، فإن الحسن اذا زاد على قدر الحاجة انقلب قبحا وتشويها ، وهم قد قالوا : ينبغى ان يقتصر من الكلام على قدر الحاجة ، ولكل مقام مقال ... فالزيادة من غير حاجة لغو وفضول يجب ان تصان عنه البلاغة ، وان يسلم منه البيان وهذا شيء من البداهة بمكان .

ونحسب انه ما كان ينبغى ان نعرج على امثال هذه الشبه ، ولا ان نسترسل فى حرب تلك النظريات ، لولا انها شاعت فى هذا العصر ، وانها قد استأثرت منه بمجهود عظيم ، وعدت على البلاغة اشد عدوان والتوت بها فى أوعر سبيل ، وانها احلت أعجب فنونها سحرا منازل الضعة والهوان ، وأحالت اكثر فوائدها إلى اصواف وخزف ..

ونحن – على طول ما أبدأنا وأعدنا – لانزال نحس أن فى المجال متسعا لاننا لم نزد على ضرب المثل ، لكشف الطريق ، ونصب الصوى ، وتحديد الهدف ، ولأن هذا المجال خاصة . مجال تتسع فيه الحجة وتضيق ، وتبدى عن وجهها وتصد ، مع كثرة الشبه ، وتنوع البدع ، وكشف فى حرب الفلسفة المضطربة بضرب من الادلة متسقة اوحشد من الخواطر مجتمعة ؟ ؟

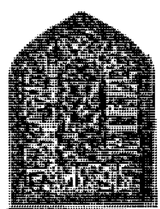
هذا هو البديع فى هذا العصر ، وذلك مبلغ نظرهم اليه جملة ، من حيث انه فن بلاغى ، ومقدار تصورهم لمكانته واغراضه فى الكلام ، وكيف نشأ هذا التصور عندهم ، وكان بعيد الاثر فى توجيه دراستهم له وعنايتهم به .

***



الفصل التاسع

التحليل الأسلوبى لعلم المعانى



اختلف الناس فى فهم أساليب الصياغة العربية وأسرارها اختلافا ينم عن فساد الذوق ، واضطراب الثقافة .

روى ابن الأنبارى انه قال : ركب الكندى المتفلسف إلى أبى العباس (ثعلب أو المبرد) وقال له : انى اجد فى كلام العرب حشوا :

فقال : أجد العرب يقولون : عبد اللّه قائم ، ثم يقولون : « ان عبد اللّه قائم » ثم يقولون : « إن عبد اللّه القائم » فالألفاظ متكررة والمعنى واحد .

فقال أبو العباس : بل المعانى مختلفة :

فقولهم : « عبد اللّه قائم » اخبار عن قيامه ، وقولهم : « إن عبد اللّه قائم : جواب عن سؤال سائل :

وقولهم : « إن عبد اللّه لقائم » جواب عن انكار منكر قيامه.فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعانى .

قال : فما أحار المتفلسف جوابا[1] .

ومن أجل ذلك كانت الغاية من علم المعانى هى تطبيق الكلام العربى على نظرية المطابقة لمقتضى الحال[2] وذلك مما احتاجه الفكر العربى فى ذلك الزمن ، ومطابقة

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٤٢ :

(٢) الحال هو الأمر الداعى إلى المتكلم ليعتبر مع الكلام الذى يؤدى به اصل المعنى خصوصية ما .. وهذه الخصوصية هى مقتضى الحال ، فانكار المخاطب للحكم مثلا . حال يقنتضى تأكيده ، والتأكيد مقتضى الحال .

ومعنى مطابقته له . أن الحال إن اقتضى التأكيد كان الكلام مؤكدا ، وإن اقتضى الإطلاق كان الكلام عاريا من التأكيد ..

فالانكار حال ، والتأكيد مقتضى الحال ، وقولك « إن زيدا فى الدار » مؤكدا بإن كلام مطابق لمقتضى الحال ، يعنى أنه مشتمل عليه ، أى على التأكيد والتحقيق أن مقتضى الحال هو الكلام الكلى المشتمل على الخصوصية ، ومطابقة الكلام لذلك المقتضى هو كون الكلام الجزئى الصادر من المتكلم الملقى إلى المخاطب المشتمل على الخصوصية من افراد ذلك الكلام الكلى الذى يقتضيه الحال ، فإن ذلك المقتضى صادقا عليه – فقولنا « ان زيدا فى الدار مؤكد جزئى من جزئيات ذلك الكلام الكلى الذى =

الكلام لمقتضى الحال تكون بالنظر إلى احوال اجزاء الجملة ، او الجملة بأسرها ، وبالنظر إلى الجمل او مجموعة منها ، واختيار الحالة التى تتناسب مع ما انت بصدده من معنى تريد تصويره ، والتعبير عنه[1] .

استعارات القرآن الكريم تعمل على ايضاح المعنى ، حتى يصير ملموسا مأنوساً لدى النفس البشرية[2] .

فعلم المعانى فى اخص خصائص النهج على أسلوب المطابقة لمقتضى الحال ، فهو من اخص مقتضيات الأحوال ، ومن أحقها بالرعاية والاعتبار ، ويبدو فى حسن الاختيار لمفردات التركيب ، وان يستعمل المتكلم من الألفاظ ما يناسب المعنى ، وما يحسن السفارة عن الغرض ، فيجعل الفاظ المدح غير الفاظ الغزل ، والفاظ الفخر غير الفاظ العتاب ، فهو فن خصب ممتع . واسع المدى . قوى الأثر . كان على البلاغة ان تعنى به ، وأن تفسح له من مباحثها ارحب مكان .

ولسنا ندعى ان البلاغة قد أهملته الإهمال كله ، ولكنا نقول إنها قد تجاهلت كثيرا من قدره ، وبالأخص بلاغة المتأخرين ، من مثل قول الخطيب فى مقدمة التلخيص « ولكل كلمة مع صاحبتها مقام » بل ان الشراح لينحون بهذه الجملة منحى فيه كثير من روح النحو ومن الفروق التى بين وجوهه فجعلوا القصد منها مثلا ان يكون لأداة الشرط مع الماضى موقع ليس لها مع المضارع ، وان يكون « لأن » مع الفعل موقع يخالف موقع « اذا » معه ، وهلم جرا .

فالبحث عن جوهر المفردات اللغوية وطبيعتها ، ومقدار ملاءمتها للأغراض التى سيقت لها . وهل أدت بمدلولها اللغوى ، واستعمالها العرفى ما نيط بها من غرض ،

= يقتضيه الحال الذى هو الإطار المقتضى لكلام مؤكد بمطلق تأكيد لا بتأكيد مخصوص .. فقولنا « إن زيدا فى الدار » مطابق له بمعنى أنه صادق عليه أى بمعنى أن الكلام الكلى المؤكد الذى هو مقتضى الحال صادق ومحمول على هذا الجزئى لكونه جزئيا من جزئياته .

فالبلاغة على هذا التحقيق مطابقة هذا الجزئى لذلك الكلى بمعنى كونه جزئيا من جزئياته بحيث يصلح حمل مقتضى الحال عليه . والكلام الجزئى مطابق ، والكلام الكلى مطابق بفتح الباء .

(١) ص ١ محاضرات فى البلاغة العربية للدكتورين : على البدرى – ومحمد جلال الذهبى .

(٢) ص ٩٤ الاستعارة .. د . محمود شيخون – الطبعة الاولى ١٩٧٧ –دار الطباعة المحمدية ..

أم هل قصرت عنه ووقفت دون غايته ، هذا البحث الجليل قد اختفى فى بلاغة المتأخرين ، ولم يجد له فيها مكانا ، لافى المعانى ، ولا فى البيان والبديع .

أما البلاغة فقد جالت فيه جولات صادقة . وأبدت من الاعتداد به ، مايدل على مقدار مافيها من حياة وقوة ، ومقدار ما لرجالها من مهارة فى فهم نواحى الجمال ، وفنون البلاغة فى الكلام . فلم تقف عند صور الاستعارة والتشبيه وجملة فنون البديع ، ولا عند صور المعانى فى التركيب ، وما يتعاقب على الكلمة من تعريف وتنكير ، أو تقديم وتأخير ، أو حذف وذكر ، بل جاوزت ذلك كله ، وبحثت فى جوهر الألفاظ وفى مقدار وحيها إلى الذوق ومبلغ تأثيرها فى النفس واعرابها عن القصد ، وكفايتها فى أداء الغرض .

نعم ، قد عرض المتأخرون لشىء مما يتصل بطبيعة الكلمة وبنيتها ، ولكنهم لم يزيدوا فى ذلك على التنافر والغرابة ومخالفة القياس ، فأما ما وراء ذلك من رقة وعذوبة يقتضيها المقام فى مثل الغزل والعتاب ، والتشوق والاعتذار ، ومن قوة وصلابة يتطلبها الإنذار والتهديد ، والزجر والتخويف ، ومن شرف وفخامة فى المدح والرثاء ، وهزل ومجانسة فى التهكم والهجاء ، فقد سهوا عنه وقصروا فى حقه ، وتجاهلوا من قدره .

ولعل عذرهم فى هذا التقصير ، ان هذا الفن من سياسة الألفاظ لايخضع لقانون يحده ، ولايمكن أن توضع اليد فيه على أصل ثابت معين ، وإنما أصله وما عليه المعول فيه ، هو الذوق والعرف والاستعمال . وهذه امور لاتنضبط ولاتحد ، لأنها تختلف باختلاف البيئة والعصر ، والعرف الأدبى والاستعمال السائر . وقد علمنا ان هذا العصر عصر تحديد وحصر ، وتقنين وضبط ، فلا عليه ان يهمل هذا الفن الذى لاينضبط ..

ولو انهم اخذوا فى دراسة البلاغة بمذهب التقريب ، ولجأوا إليه فى التعريف والتصوير وقنعوا بذكر المثل والمشاهد والموازنة بين أساليب العرب فى أغراضها المختلفة ، لوجدوا فى تراث العصر الأول ما يروق ويعجب ، ولبنوا عليه فى هذا الفن بناء شامخا ، ولجانبتهم تبعة التقصير فى حق كثير من فنون البلاغة العالية .

وإن كتب النقد الأدبى ، وكتب البلاغة الأولى لتفيض بالمثل والشواهد فى فن سياسة الألفاظ ، وبالموازنة بين صور الأساليب فى الأغراض المتباينة والمعانى الكثيرة ، وقد رأينا فى صحيفة بشر بن المعتمر كيف نوه بمشاكلة الألفاظ للمعانى ، وبقيمة هذه المشاكلة فى بلاغة الكلام وتأثيره ثم إن الجاحظ يقول فى ذلك:« إن سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعانى وقد يحتاج إلى السخيف فى بعض المواضع ، وربما امتع بأكثر من امتاع الجزل الفخم ، ومن الألفاظ الشريفة الكريمة المعانى[1] » .

وترى فى وصية أبى تمام للبحترى « فان اردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقا ، والمعنى رشيقا ، واكثر فيه من بيان الصبابة ، وترجع الكآبة ، وقلب الأشواق ، ولوعة الفراق[2] ... »

ويقول القاضى فى الوساطة « وأرى لك أن نقسم الألفاظ على رتب المعانى ، فلا يكون غزلك كافتخارك ، ولا مديحك كوعيدك ، ولا هجاؤك كاستبطائك ، ولا هزلك بمنزلة جدك ، ولا تعريضك مثل تصريحك ، بل ترتب كلا مرتبته وتوفيه حقه ، فتلطف اذ اتغزلت وتفخم اذا افتخرت وتتصرف للمديح تصرف مواقعه ، فان المدح بالشجاعة والبأس . يتيمز عن المدح باللباقة والظرف ، ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام[3] ... . »

وهكذا يقول أبو هلال والخفاجى وابن رشيق ، اذ أفردوا كل فن من فنون القول . من الغزل والوصف ، والمدح والهجاء والفخر والرثاء ، وذكروا ما هواملك به واجدر ان يقال فيه[4] .

ومن ابين ذلك وادله على ما تريد قول الخفاجى فى سر الفصاحة:« وليس يمتنع أن يكون للشىء الواحد اسمان ، يستعمل احدهما فى موضع ويستعمل الاخر فى

---

(١) البيان والتبين ج١ ص١١٠ .

(٢) العمدة ج٢ ص٩٢ .

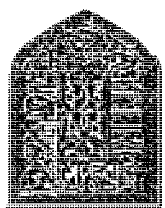
(٣) الوساطة ص ٢٤ .

(٤) الصناعتين ص ٩٧ ، ٩٩ ، ١١٢ ، ١١٤ ، سر الفصاحة ص١٤٥ ، ١٥٩ ، ٢٤٢ ، ٢٥١ ، العمدة ج٢ ص٩٣ – ١٤٥ .

موضع اخر ، وهذا شيء انما أصله العرف والعادة ، دون أصل وضع الأسماء فى اللغة ، ألا ترى ان الإنسان إذا مدح ذكر الرأس والكاهل والهامة ، وإذا هجا ذكر القفا والأخداع والقذال ، وان كانت معانى الجميع متقاربة[1] .

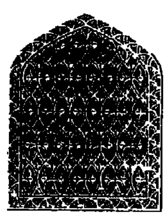
***

(١) ص ١٥٦ .



الفصل العاشر

الأسلوبية
بين أنصار اللفظ وأنصار المعنى



يؤكد عبد القاهر أن المعنى هو كل شيء . وأن اللفظ بمعنى الجرس والصوت لا قيمة له ، وان كانت هناك قيمة فلما يحمل من معنى هذا السؤال فى الشكل الذى وصفناه به يتجه إلى ناحيتين : الأولى اللفظ فى جرسه وصوته . ووقعه على الأذن . وتأليف حروفه ، وعدم المنافرة فيها . والثانية اللفظ فى دلالته على المعنى الذى يحمله بالفعل أو القوة على حد تعبير المناطقة ، ونقصد بالقوة ما يمكن أن يخرج به اللفظ إلى المعانى الأخرى التى يتحملها عن طريق الاستعارة والمجاز . أما من الناحية الأولى فينكرها عبد القاهر إنكارا يكاد يكون تاما.لأنه لا يرى فى اللفظ مايوجب الفضل الأدبى من حيث هو جرس وصوت . وهى ناحية لا نسلمها بسهولة لعبد القاهر : فما من شك أن هناك الفاظا تحمل فى جرسها المعنى الذى أسمعه الجرس . والوقع نفسه ، وما أسماء الأصوات ودلالتها اللفظية على معناها إلا من هذا القبيل . وهناك علم برمته من بين « علوم الملة » على حد تعبير « ابن خلدون » تقتصر مباحثه على مخارج الحروف ، ويقسم هذه الحروف إلى مهموسة ، ومقلقلة ، ومستعلاة ، وغيرها مما هو مشهور فى مصطلحات التجويد .. وهناك ألفاظ تكاد تكون دلالتها فى كل اللغات من أصواتها[1] وقد عقد لها « ابن جنى » فصلا خاصا فى كتابه « الخصائص » . على أن المتتبع لعبد القاهر يجد أنه يعترف بهذه الناحية فيجعل لخفة الكلمة . وثقلها على اللسان ووقعها فى الأذن ، وزنا فى الكلام ولو أنه طفيف لا يرضى عنه فى جملته ، ففى آخر كتابه « دلائل الإعجاز ، تقع على النص الآتى : « واعلم أنا لا نأبى أن تكون مذاقة الحروف وسلامتها مما يثقل على اللسان ، داخلا فيما يوجب الفضيلة ، وأن تكون مما يؤكد الإعجاز . وإنما الذى ننكره ونقبل رأى من يذهب إليه أن يجعله معجزا به وحده ، ويجعله الأصل والعمدة فيخرج إلى ما ذكرنا من الصناعات »[2] .

وهكذا نرى أنه لاينكر هذه الناحية الصوتية . أو أنه أجبر اخيرا أمام عبارات القرآن فى الأقل . على أن يجد للحروف مذاقا ، وأن يجعل خفتها على اللسان ، ووقعها فى الأذان مما يوجب الفضيلة .

(١) وهى بمعنى الصوت والمعنى .
(٢) دلائل الإعجاز صفحة ٣٧٥ .

إن جمال الكلمة وقبحها يأتى إما من ناحية الجرس وإما من ناحية المعنى[1] ، « فعبد القاهر تكلم فى الجرس وعدم العناية به كلاما طويلا ، لايقوى على انكار كثيره هذا النص الأخير الذى عثرنا عليه فى آخر كتابه ، لدعاية المدلول الجرسى ، وان كان متفقا معهم فى المدلول المعنوى الذى قال فيه « متى بن يونس » المعنى أشرف من اللفظ ، واللفظ أوضح من المعنى ، والذى قال فيه « السيرافى » : « اللفظ طبيعى والمعنى عقلى[2] » ، فشخصية عبد القاهر هنا واضحة يستطيع أن يدلل على وجودها ، لأنه رجع لمذاقة الحروف وسلامتها من الثقل ، فلم يجعلها وحدها كافية لاثبات المزية التى أرادها « أرسطو » .

أما ناحية المعنى فعبد القاهر محق فى تقريرها ، وهو بهذا التقرير يتفق مع ما يراه « علم النفس اللغوى الحديث » . فاللفظ متحمل بمعناه ، ولايمكن أن نتصور لفظا من غير فكرة ، والفكرة سابقة على اللفظ ، واذا كان الطفل قادرا على الفهم قبل أن يقدر على الكلام . كان معنى هذا أن فهم مدلول الفكرة سابق على فهم مدلول اللفظ ، ومتى عرضت الفكرة للطفل وتأثر بها عبر عنها أولا بالتعبير الذى يراه من مقاطع تدل على كلمات ، ومن أسماء تدل على أفعال ، ومن كلمات تدل على جمل ، انتظارا للغة الاجتماعية التى يتعلمها بألفاظها وبما تحمله هذه الألفاظ من معان وأفكار . على أن الأفكار متى وجدت لاتعمل وحدها ، ولكنها تتطلع من نفسها بطبيعتها . إلى ان تدرك غايتها . ولا غاية لها إلا فى الحقيقة التى تقررها بعبارة من العبارات أى بالألفاظ[3] فلا بد أن نفهم مع « عبد القاهر » أن المعنى هو المتحكم فى اللفظ ، وهو الذى يستدعيه ، فهى فكرة صحيحة من الناحية العلمية . واذا نظرنا إلى المسألة من ناحية أخرى وجدنا ان الفكرة (المعنى) لاتستدعى اللفظ اذا كانت جنينية ، أى قبل اكتمال خلقها ، فاذا اكتمل خلقها واجتمعت لها صفاتها ، وحددت تحديدا حقيقيا . أى اذا وصلت إلى منتهاها ، وثبت اليها الكلمة المواتية وثبا . هذا هو مكمن السر فى كلام عبد القاهر حينما يدعو الأديب إلى المعنى . وإلى التفكير فيه ، قبل التفكير فى اللفظ ، فمتى دق المعنى وتحدد ، وانس بالبيئة التى ورد فيها الكلام ،

(١) راجع صفحة ١٥٤ وما بعدها .

(٢) راجع المناقشة بين السيرافى وعلى بن يونس .

(٣) دلائل الإعجاز صفحة ٤٨ .

فتق بان مرام اللفظ سهل ويسير ، « وكيف يتصور أن يصعب مرام اللفظ بسبب المعنى ، وأنت إذا أردت الحق لا تطلب اللفظ بحاله وإنما تطلب المعنى ، واذا ظفرت بالمعنى فاللفظ معك وازاء ناظرك » .

ويقول النقاد فى هذا المعنى « ان الكلمة ثمرة للفكرة فمتى نضجت الفكرة سقطت كما تسقط الثمرة الناضجة ، ولكنها تسقط على كلمتها » ويقول آخر:وعندما تصل الفكرة إلى تمامها تصبح بكلمتها ، وهو كلام سبق به عبد القاهر » ويقرره قبلهما بقرون ! .

ونحن هنا مع « عبد القاهر » فى فكرته فى سبيل نصرة المعنى ، وإلا فكما قلنا إن الفكرة إذا وصلت إلى نهايتها صاحت بكلمتها ، لنا أن نقول أيضا إن الفكرة لاتصل إلى تمامها مالم تنجسم فى كلمة . بل لنا أن نقول « إن بعض الكلمات تحمل أفكارا كاملة ، لأنها تعتبر نقط ارتكاز للذكاء والتصرف .

« فالفعل أساس فى الجملة ، والصفة والظرف يدلان على العلاقات المتصلة بالفعل أو الإسم ، وبعض الكلمات لاتحتاج إليها إلا فى تقرير العلاقات المنطقية بين الأفكار ، كالضمائر والحروف وأسماء الإشارة ، فهى روابط للدلالة . وليس لها فى ذاتها معنى تام ، لذلك لانحب الإكثار منها » .

والفعل يبحث عن فاعل ، والصفة تبحث عن موصوف ، والظرف يبحث عن مستقر للجملة فى الزمان أو فى المكان ، واذا كانت مثل هذه الألفاظ من شأنها أن تحرك الذكاء وأن تشيع الحركة والحيوية فى الجملة ، أفلا تكون الألفاظ وبخاصة الأساسية منها هى المتحكمة فى المعانى ؟ ! هذا كلام يسر له « عبد القاهر » كثيرا ومن أجله فكرا فى معانى النحو وخصها بهذه العناية . فلم تبق اذن الاشبهة أن الفكرة لاتظهر إلا إذا تجسمت فى كلمة ، مع ان رأى « عبد القاهر » كرأى غيره من علماء النفس يرى أن الفكرة التامة توجد كلمتها . ليس هنا من تناقض فى الحقيقة ، وإنما هنا نوع من التلازم فى تعبير المناطقة ، أو من « تداعى الأفكار » فى تعبير علماء النفس . فالمعنى يستلزم اللفظ ، واللفظ الدال على معناه لايفهم وحده فهما تجريديا ، وإنما يستدعى غيره مما يشبهه فى الدلالة أو المعنى . وسواء أجلب المعنى اللفظ ، أم جلب اللفظ المعنى ، فان مايريده « عبد القاهر » هو ألا تتحكم الصناعة البديعية

فى عبارة الأديب ، فيجتلب لها الألفاظ اجتلابا من غير استدعاء المعانى لها ، على أن اللفظ اذا استجاب للمعنى كان نقطة ارتكاز لما يأتى بعده ليكون عبارة أو اسلوبا ، ومتى وصل اللفظ إلى هذه المرحلة ، دخل فى باب المعانى وحسن التأليف ، وقد رأينا أن حسن التأليف فى نظرالآمدى شيخ عبد القاهر ، يزيد فى المعنى حسنا ورونقا ، حتى كأنه أحدث فيه غرابة لم تكن وزيادة لم تعهد[1] » لأن حسن التأليف فيه تصوير ، والتصوير من الخيال ، والخيال نفسه لايخلو من الفكرة ، كما أن الفكرة لاتخلو من الخيال .

وهكذا خالف « عبد القاهر » كل من يتعلق بالجمال الذى تظهر به الكلمة فى جرسها وفى تناسق حروفها ، ورأينا أنه قد رجع عن فكرته فى اخر كتابه « دلائل الإعجاز » ولكن بحذر ، وبتحفظ العالم الذى يخشى أن تؤثر عبارته على تقرير النظرية التى يهدف إلى اثباتها . ورأينا له رأيا خاصا بالطباق والتجنيس ، فالطباق ضد يميز الأشياء ، والتجنيس مخالفة مداعبة من الأديب للقارىء أو السامع : يكرر الكلمة فيحسبها القارىء كلمة مكررة ولفظة معادة ، ويسارع إلى اتهام الأديب بالتكرار وقلة الفائدة ، ثم لا يلبث بعد أن يعلم أن الكلمة الثانية فى الجناس تخالف الكلمة الأولى فى المعنى وان تزيت بزيها ، حتى يرجع إلى نفسه بالتهمة التى وجهها إلى الأديب . ويقول ما أحق ما يقوله وما أصدقة ! أنا الذى أخطأت الفهم لا الأديب .

لقد ظهر عبد القاهر وسط الصراع المحتدم بين أنصار اللفظ وأنصار المعنى ، وكذلك رأى عند الآمدى والقاضى الجرجانى للتأثير النفسى قيمة تقف إلى جانب القيم اللفظية والمعنوية . والتقت هذه الأفكار كلها فيه ، واختلطت بحسه وفكره ووجدانه ، فخرج منها ومما قرأه حول الإعجاز وما أحاط به من الدراسة والتجربة بفكر جديد ، لايخطىء تاريخ النقد والبلاغة عندما ينسبه إليه . لم ير فضل الكلام وحسنه فى الألفاظ ، كما لم يرها فى المعانى بالمفهوم الذى استقرت عليه عند المعنويين ، وانما رآه فى الكيفية التى يكون عليها نظم الكلام ، وبذلك استطاع ان يقضى على هذه الثنائية فى النقد العربى ، تلك التى جعلت للألفاظ أنصارا ، وللمعانى آخرين ، فكانت جريرة ذلك على البلاغة ان الذين فسدت فيهم حاسة الذوق أهملوا جانب

---

(١) الموازنة صفحة ١٧٣ .

اللفظ ، والذين ضعفت فيهم ملكة العقل غضوا من شأن المعنى فضلوا جميعا طريق الأسلوب الحق ، فلا هؤلاء سلموا من معرة العى ولا اولئك سلموا من نقيصة الهذر »[1]. لقد ادرك بفكره ماأدركه عصرنا الحاضر من صعوبة تقسيم العمل الأدبى إلى لفظ ومعنى ، أو صورة وفكرة . لأنهما « فى الأسلوب كل لايتجزأ ، ووحدة لاتتعدد ، وليس أدل على ذلك من أنك اذا غيرت فى الصورة تغيرت الفكرة . واذا غيرت فى الفكرة تغيرت الصورة ، فقولك : أعنيك ، غير قولك إياك أعنى ، وقولك : كل ذلك لم يكن ، غير قولك : لم يكن كل ذلك ، فترتيب الألفاظ فى النطق لا يكون إلا بترتيب المعانى فى الذهن ... »[2]

وعبد القاهر ينفى ان تكون معتبرا مفكرا فى حال للفظ حتى تضعه بجنبه أو قبله ... والألفاظ اذا كانت أوعية للمعانى فانها لامحالة تتبع المعانى فى مواقعها ، فاذا وجب لمعنى أن يكون اولا فى النفس ، وجب للفظ الدال عليه ان يكون مثله أولا فى النطق ، فأما ان تتصور فى الألفاظ ان تكون المقصودة قبل المعانى بالنظم والترتيب ، وأن يكون الفكر فى النظم الذى يتواصفه البلغاء فكرا فى نظم الألفاظ ، أو ان تحتاج بعد ترتيب المعانى إلى فكر تستأنفه لأن تجىء بالألفاظ على نسقها فباطل من الظن ، ووهم يتخيل إلى من لايوفى النظر حقه[3] » .

وليس غريبا وقد جعل عبد القاهر مدار الحسن والمفاضلة بين الكلام فى النظم ان تتوارى عنده فى الظلام قيمة اللفظ المفرد من حيث هو لفظ ، أى قبل دخوله فى التركيب والصياغة . وتصبح قليلة الجدوى . لأنه لا مجال للمفاضلة بين الألفاظ هكذا إلا فى اضيق الحدود . فليس « الليث » مثلا أدل على السبع المعلوم من « الأسد » وليس « رجل » أدل على معناه من « فرس » على ما سمى به ، ان ما يمكن ان تمتاز به لفظة على أخرى قبل ان يجمعهما النظم ينحصر عنده فى « أن تكون هذه مألوفة مستعملة ، وتلك غريبة وحشية ، أو أن تكون حروف هذه أخف ،

---

(١) دفاع عن البلاغة ص٦٤ .

(٢) المصدر السابق ص٦٠ . وانظر التيارات المعاصرة فى النقد الأدبى ص ١٨٤ . وأسرار البلاغة ص٨ ، ٩ . ودلائل الاعجاز ص٤٠ . ودراسات فى النقد العربى الحديث ص١٠١ .

(٣) دلائل الاعجاز ص٤٢ ، ٤٣ وانظر ص٣٦ ، ٣٧ .

وامتزاجها أحسن ، بما يكد اللسان أبعد[1] . كما يدخل فى جمال اللفظ أيضا الا يكون « عاميا سخيفا محقة بازالته من موضع اللغة واخراجه عما فرضته من الحكم والصفة ، كقول العامة « انفلت » أو « انفسد[2] » ومع وضوح هذه النصوص التى يضعها عبد القاهر فى الصدر من كتابيه كما نرى - لبيان قيمة اللفظ المفرد ومع قراءة الدكتور ابراهيم سلامة لنص : « أسرار البلاغة » فاننا نراه فى بحثه لموقفه من اللفظ والمعنى من خلال كتابه : « دلائل الإعجاز » يذهب إلى أنه ينكر أن يكون للفظ قيمة من ناحية جرسه وصوته ، وحين عثر قرب نهاية الكتاب على مايثبت انه يعطيه بعض القيمة حيث يقول : « واعلم انا لانأبى ان تكون مذاقة الحروف وسلامتها مما يثقل على اللسان داخلا فيما يوجب الفضيلة ، وأن تكون مما يؤكد امر الإعجاز ، وانما الذى ننكره ، ونقبل رأى من يذهب إليه أن يجعله معجزا به وحده ، ويجعله الأصل والعمدة فيخرج إلى ما ذكرنا من الشناعات . (دلائل الاعجاز ص٤٠١) - ظن أنه « قد اجبر أخيرا امام اعتبارات القرآن فى الأقل على أن يجد للحروف مذاقا ، وأن يجعل خفتها على اللسان ، ووقعها فى الأذن ، مما يوجب الفضيلة » (بلاغة ارسطو بين العرب واليونان ص٢٦٦) ، وانه قد خالف ارسطو فيما يتعلق بالجمال الذى تظهر به الكلمة فى جرسها وفى تناسق حروفها ورأينا انه قد رجع عن فكرته فى آخر كتابه « دلائل الإعجاز » ولكن بحذر ، وبتحفظ العالم الذى يخشى ان تؤثر عبارته على تقرير النظرية التى يهدف إلى اثباتها (المصدر السابق ص٢٦٩) وعبد القاهر فى الحقيقة لم يرجع فى آخر كتابه عن فكرة له فى أوله - كما بدا للدكتور - ولم يخش على تقرير نظريته حتى يكون رجوعه بحذر وتحفظ ، فقد كان واضحا من أول الأمر موقفه من قيمة اللفظ المفرد ، وما ذكره فى آخر الدلائل ليس الا تأكيدا لما سبق أن ذكره صراحة فى أوله ، ولم يتراجع عنه ، وليس فى هذا تعارض مع نظريته حتى يخشى منه عليها ، لأنه ليس من انصار المعنى بالمفهوم الذى عرفه عند المعنويين من أمثال أبى عمرو الشيبانى - كما سنبين -

ولا تأتى المفاضلة فى رأى عبد القاهر الا من خلال النظم وأصدق مثال على ذلك هو ما تراه فى الآية الكريمة ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ

---

(١) دلائل الاعجاز ص٣٦ ، وانظر ٤٧ ، ٤٠١ .

(٢) اسرار البلاغة ص٩ وانظر البيان والتبيين ج١ ص١٤٤ .

أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ[(١)]﴾ من صور الإعجاز البيانى الذى تشعر به عند سماعها ، فلا يمكن أن ترجع ذلك إلى مفردات الآية دون نظر إلى وضعها فى الجملة بلا الأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض ، ولم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى الثانية ، والثالثة بالرابعة وهكذا إلى ان تستقر بها إلى آخرها . فالفضل ناتج من بينها ، وحصل من مجموعها ، وان شككت فتأمل : هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين اخواتها ، وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهى فى مكانها من الآية ؟ قل « ابلعى » واعتبرها وحدها من غير ان تنظر إلى ماقبلها وإلى ما بعدها ، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها ...[(٢)] » .

ومع أن عبد القاهر قد خرج من قضية اللفظ والمعنى برأى قاطع فى النظم حيث جعله مرجع الفضل والمزية ، ودافع عنه بكل ما اوتى من قوة المحاجة والاقناع ، حتى أصبح هذا الرأى نظرية تنسب إليه ومقياسا صحيحا للنقد الأدبى ، فاننا نراه مع ذلك يرفع من شأن المعنى تارة ، ومن شأن اللفظ تارة آخرى ، فمامعنى ذلك ؟ هل يعنى اضطرابا فى فكره اوقعه فى الخطأ والتناقض ، والاسراف فى فهم الناس كما ذهب إلى ذلك بعض المحدثين ؟[(٣)] ، أو أنه يعتبر رجوعا عن نظريته وتخليا عن التمسك بها والدفاع عنها ؟ ! إن الدراسة الواعية لهذه المشكلة من واقع ما كتبه فى « دلائل الإعجاز » تبين لنا انه لم يقع فى شىء من ذلك ، فلم يضطرب فكره ، ولم يرجع عما اعتقده فى امر النظم .

واللفظ يرد فى كتاب « الدلائل » مراد به أحد امرين :

– الجانب الصوتى المجرد (صياغة الكلام وصورة معناه)

– وكذلك « المعنى » يراد به احد امرين :

---

(١) سورة هود الآية : ٤٤ .

(٢) دلائل الاعجاز ص٣٦ ، ٣٧ .

(٣) انظر . البلاغة العربية فى دور نشأتها ص١٧٢ ، ومن الجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده ص٧٧ . ومذكرات فى البلاغة ص ١٢ – ١٥ .

أولا – الغرض العام والمعنى الغفل بصرف النظر عن جمال الصورة التى يؤدى بها أو قبحها .

ثانيا – صورة المعنى التى يتحكم فيها نظم الكلام جمالا وقبحا .

فأحيانا يمنع عبدالقاهر أن يكون « اللفظ » مرجع الحسن فى الكلام ، ويرى المعنى هو المرجع اذ يقول فى أعقاب جانب من مناقشته لانصار اللفظ. وجعله الأمر انك لاترى ظنا هو أنأى بصاحبه عن أن يصح له كلام ، أو يستمر له نظم ، أو تثبت له قدم ، أو ينطق منه الا بالمحال فم ، من ظنهم هذا الذى حلم بهم حول اللفظ ، وجعلهم لايعدونه ، ولا يرون للمزية مكانا دونه... فالمزية التى من أجلها استحق اللفظ الوصف بأنه فصيح هى فى المعنى دون اللفظ لأنه لو كانت المزية التى من أجلها يستحق اللفظ الوصف بأنه فصيح تكون فيه دون معناه لكان ينبغى اذا قلنا فى اللفظ انها فصيحة ان تكون تلك الفصاحة واجبة لها بكل حال ، ومعلوم أن الأمر بخلاف ذلك ..[1] . » فهو حينئذ يريد « باللفظ » معناه الأول الذى ذكرناه هنا .

ولا يمنع فى احيان اخرى ان يكون « المعنى » مرجع هذا الحسن ، ويرى اللفظ هو المرجع اذ يقول : « واعلم ان الداء الدوى والذى اعيا امره فى هذاالباب غلط من قدم الشعربمعناه وأقل الاحتفال باللفظ ، وجعل لايعطيه من المزيه ان هو اعطى الا مافضل عن المعنى ، يقول : مافى اللفظ لولا المعنى ؟ وهل الكلام الا بمعناه ؟ فانت تراه لايقدم شعرا حتى يكون قد أودع حكما وأدبا ، واشتمل على تنبيه غريب ومعنى نادر ... والأمر بالضد اذا جئنا إلى الحقائق ... لأنا لانرى متقدما فى علم البلاغة الا وهو ينكر هذا الرأى ويعيبه ، ويزرى على القائل به ، ويغض منه[2] . فهو حينئذ يريد « بالمعنى » المفهوم الأول الذى ذكرناه له .

واذا تأملنا فيما ذكرناه عن مفاهيم « اللفظ » و « المعنى نجدهما يلتقيان فى المفهوم الثانى لكل منهما ، ويخضعان بالتالى للنظم باعتباره المحور الأساسى فى العملية النقدية ،

---

(١) دلائل الاعجاز ص٣٠٧ .

(٢) المصدر السابق ص١٩٤ ، ١٩٥ .

فلا تناقض اذن ولا اضطراب ، ولا رجوع عما دونه فى شأن النظم . ولكن قد يكون من حقنا ان نأخذ عليه عدم تحديد هذه المفاهيم قبل الخوض فى مناقشة اصحاب الأراء المخالفة . كما حدد النظم، حتى لاتتشعب بنا الآراء من وجهة نظر أصحابها ، فحين تصور وقوفهم بـ « اللفظ » عند الجانب الصوتى . حارب هذا المفهوم له ، وحين وقفوا » بـ« المعنى » عندما لم يرده منه حارب ايضا هذا المفهوم له ، وبذلك التقى اللفظ والمعنى فى دائرة النظم عنده ، إذ أن الجانب اللفظى الذى دعا إليه ووقف به فى وجه أصحاب المعانى الغفل ليس شيئا سوى عملية الصياغة والنظم ، كما أن جانب المعنى الذى دعا اليه أيضا فى مواقف اخرى كثيرة ، ليس شيئا سوى المعنى المصور الذى لاوجود له إلا بعملية الصياغة والنظم أيضا . ومن هنا فأنا لا نكون مغالين اذا قلنا : إن عبد القاهر ظل وفيا امينا لنظريته فى النظم ، تلك التى قضت — كما سبق أن ذكرنا — على الثنائية بين اللفظ والمعنى . بهذا المفهوم الثانى الذى اراده لهما فى ضوء ما بينا . وجمعتهما الصورة فى وحدة متلاحمة الأجزاء .

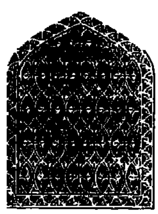
ولقد كان مبعث الخلاف يبين عبد القاهر وخصومه هنا هو انهم لم يروا فى الكلام غير اللفظ والمعنى . ومن هنا وقعوا فى الخطأ حين ارجعوا الفصاحة إلى اللفظ أما هو فقد رأى فى الصورة امرا ثالثا ، من ادركه لم يقع فيما وقع فيه هؤلاء ، ولذا يقرر . إن « أصل الفساد ، وسبب الآفة هو ذهابهم إلى أن من شأن المعانى ان تختلف عليها الصور وتحدث فيها خواص ومزايا من بعد الاتكون ، .. فان جهلهم بذلك من حالها هو الذى أغواهم واستهواهم ، وورطهم فيما تورطوا فيه من الجهالات ، واداهم إلى التعلق بالمحالات ، وذلك انهم لما جهلوا شأن الصورة . وضعوا لأنفسهم أساسا وبنوا على قاعدة ، فقالوا ، إنه ليس إلا المعنى واللفظ ولا ثالث ، وانه اذا كان كذلك وجب إذا كان لأحد الكلامين فضيلة لاتكون للآخر ، ثم كان الغرض من أحدهما هو الغرض من صاحبه . أن يكون مرجع تلك الفضيلة إلى اللفظ خاصة ، والا يكون لها مرجع إلى المعنى من حيث أن ذلك — فى زعمهم — يؤدى إلى التناقض ، وأن يكون معناهما متغايرا وغير متغاير معا . ولما اقروا هذا فى نفوسهم . حملوا كلام العلماء فى كل مانسبوا فيه الفضيلة إلى اللفظ على ظاهره ، وأبوا ان ينظروا فى الأوصاف التى اتبعوها نسبتهم الفضيلة إلى اللفظ مثل قولهم : لفظ متمكن غير قلق ، ولا ناب به موضعه ... فيحلموا انهم لم يوجبوا للفظ ما أوجبوه من

الفضيلة . وهم يعنون نطق اللسان واجراس الحروف ، ولكن جعلوا كالمواضعة فيما بينهم أن يقولوا اللفظ . وهم يريدون الصورة التى تحدث فى المعنى والخاصة التى حدثت فيه . واذا وصفوا العبارة بالحسن فانهم لايعنون مجرد اللفظ ولكن صورة وخصوصية تحدث فى المعنى وشيئا طريق معرفته على الجملة . العقل دون السمع .

***

الفصل الحادى عشر

عبد القاهر
رائد الأسلوبية فى البيان العربى



والإمام عبد القاهر الجرجانى (٤٠٠ - ٤٧٠هـ) علم من أعلام البلاغة والبيان والنقد ، بل هو أبو البلاغة العربية ، ومبتكر نظرياتها عند كثير من الدارسين[1] .

وقد عاش حياته كلها فى جرجان وهى موطن كبير من مواطن الثقافة الإسلامية العربية فى ايران فى القرن الخامس الهجرى (نحو ٤٠٠ - ٤٧١هـ) وألف « المغنى » فى شرح الإيضاح لأبى على الفارسى فى ثلاثين جزء ، ثم اختصره فى كتاب سماه « المقصد »[2] بمثابة شرح صغير على الإيضاح، وألف مختارات من شعر المتنبى والبحترى وأبى تمام ، وكانت ثقافته العربية والنقدية والبيانية أغلب عليه ، ولقب بالنحوى لتفوقه الكبير فى النحو[3] واستقصائه لأحكامه وعلله ووجوهه .

وطارت شهرته فى كل مكان ، وتصدر حلقات الأدب والعربية فى جرجان وقصده الناس للاغتراف من علمه ، والإفادة من فضله ، وتتلمذ عليه كثيرون . منهم : ابو نصر الشجرى[4] ، وعلى بن زيد الفصيحى[5] ، وسواهما ، قيل عنه أنه فرد فى علمه الغزير ، لا بل هو العلم الفرد فى الأئمة المشاهير[6] ، فى العصر السلجوقى .

ومن أثاره الأخرى : « التكملة » وهو ذيل للإيضاح و « الإيجاز » وهو مختصر للإيضاح ، والجمل فى النحو ، والتلخيص وهو شرح لكتاب الجمل ، والعوامل المائة ، وكتاب فى العروض ، وكتاب العمدة فى التصريف . وشرح الفاتحة ، وله شرحان على إعجاز القرآن للواسطى (ت٣٠٦هـ) أحدهما كبير سماه « المعتضد » ، والآخر صغير ، والرسالة الشافية فى الإعجاز ، وقد طبعت مع رسالتين أخريين بعنوان « ثلاث رسائل » علق عليهما محمد خلف الله ، ومحمد زغلول سلام .

---

(١) ٢١٠ بغية الوعاة للسيوطى ، ٣ : ٢٤٠ شذرات الذهب ، ٣ : ٢٤٢ طبقات الشافعية ، ٢ /١٨٨ انباء الرواة .

(٢) مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١١٠٣ .

(٣) ٤٤٣ روضات الجنات ٢٠ : ٢٤٢ فوات الوفيات .

(٤) ٢ : ١٩٠ انباء الرواة .

(٥) نزهة الألباب لابن الأنبارى ص٤٣٤ - ٤٣٦ .

(٦) ١٥٨ دمية القصر .

وطبعت فى القاهرة ، وقد طبع كتابه « الطرق الأدبية » وهو مختارات من الشعر ، وطبع فى بغداد كتابه « المقتصد » فى جزءين بتحقيق ناظر المرجان وهو شرح على الإيضاح .

وله كتابان آخران : أحدهما هو « التذكرة » وذكره مؤلف « انباء الرواة » ، والآخر هو « المفتاح » ذكره صاحب طبقات الشافعية .

وأجل كتبه ، وأعظمها أثرا وأكبرها خطرا وأخلدها على الأيام كتابان هما : « دلائل الإعجاز » ، و « أسرار البلاغة » ، وهما أعظم ما ألف فى البلاغة والنقد على مر العصور .

ولقد طارت شهرة عبد القاهر بالبلاغة فى كل مكان ، وشهرته بالنقد لاتقل فى الحقيقة عن شهرته بالبلاغة ، وكتاباه يحتلان الذروة فى كتب النقد العربى ويمثلان منهجا كاملا فيه .

وفى كتابه « أسرار البلاغة » يتحدث عن المعانى الشعرية واقسامها ويخص التشبيه والتمثيل والاستعارة والمجاز والكناية وضروب التخيل بالشرح والإيضاح والبيان .

وفى كتاب « دلائل الإعجاز » ، الذى ألفه عبد القاهر ليحمل مقدمات فى دراسة الإعجاز القرآنى ، يتحدث عن النظم أو الصياغة كأساس لفهم فضيلة الكلام وبلاغته ، ولفهم إعجاز كتاب اللّه كذلك ، والكتاب فى قمة كتب البلاغة والبيان .

وفى مقدمة « دلائل الإعجاز » يعرف عبد القاهر النظم بانه « تعليق الكلم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض »[1] ، ويجعل وجوه التعلق ثلاثة : تعلق اسم باسم ، وتعلق اسم بفعل ، وتعلق حرف بهما ، ويشرح وجوه التعلق شرحا وافيا .

وعبد القاهر يؤكد أن نظم الكلام يقتفى فيه آثار المعانى وترتيبها حسب ترتيب المعانى فى النفس[2] ، وليس النظم فى مجمل الأمر عنده الا أن تضع كلامك الوضع

---

(١) الدلائل – تعليق المراغى – نشر المكتبة المحمودية .

(٢) ٣٥ المرجع السابق .

الذى يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه فلا تزيغ عنها[١] ، فمداره على معانى النحو وعلى الوجوه والفروق التى من شأنها أن تكون فيه[٢] وليس هو توخى معانى النحو فى معانى الكلم[٣] ، فلا معنى للنظم غير توخى معانى النحو وأحكامة فيما بين الكلم[٤] ، اوفيما بين معانى الكلم بتعبير آخر[٥] . والفكر لايتعلق بمعانى الكلمة المفردة مجردة عن معانى النحو أو منطوقا بها على وجه لا يتأتى معه تقدير معانى النحو وتوخيها فيها[٦] .

والنقاد فى كل اللغات يتفقون على هذا ، فالكلمة عند أفلاطون تعنى الفكرة ذاتها . وحقيقتها الخارجية المتمثلة فى صورة كلمة على السواء ، فالكلمة معناها الفكرة ، وكذلك هى تعنى الفكرة حين تعرض فى الخارج ، فكل فكرة لايمكن التعبير عنها تعبيرا كافيا إلا بكلمة واحدة ، فحيث ان كل كلمة لها ارتباطات خارجية تختلف حتى مع مرادفها اختلافا بسيطا فانه يتبع ذلك أن استعمال سوى الكلمة التى ترتبط بفكرك يعد خطأ ، فتغيير الكلمة معناه تغير فى الفكرة[٧] .

وعبد القاهر يشير إلى أنه من الضرورى فى معرفة الفصاحة أن نضع اليد على الخصائص التى تعرض فى نظم الكلام[٨] ، وأن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة . ولا من حيث هى كلمة مفردة ، وإنما تثبت لها الفضيلة وخلافها من ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها أوما أشبه ذلك ، مما لاتعلق له بصريح اللفظ[٩] .

---

(١) ٥٥ المرجع .
(٢) ٦٠ المرجع .
(٣) ٢٣٣ المرجع .
(٤) ٢٣٧ - ٢٥٠ المرجع .
(٥) ٢٥٦ - ٢٣٣ المرجع .
(٦) ٢٥٩ المرجع .
(٧) ٢٧ ، ٢٨ الادب وفنونه - عز الدين اسماعيل .
(٨) ٢٧ المرجع .
(٩) ٣٣ المرجع .

ثم يأخذ فى تفصيل أمر المزية ، وبيان الجهات التى منها تعرض ، فيتحدث عن وجوه النظم فى التقديم والتأخير ، والذكر والحذف ، والتعريف والتنكير ، والوصل والفصل ، والقصر ، ويفيض فى ذكر ضروب من تأكيد الخبر ، ويعرض للتشبيه والتمثيل والكناية والاستعارة والمجاز . مقررا أن المزية فيها ليست فى أنفس المعانى التى يقصد المتكلم إليها بخبر. ولكنها فى طريق اثباته لها ، وتقريره اياها[1] ، واذا عرض للاستعارة فى بيت ابن المعتز المشهور :

سالت عليه شعاب الحى حين دعا أنصاره بوجـــوه كالدنـــانير

ويؤكد عبد القاهر أن الاستعارة هنا على لطفها وغرابتها انما تم لها الحسن بما توخى فى وضع الكلام من التقديم والتأخير ، وتجدها قد صلحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها[2] ، وكذلك يفصل الكلام على مدخل النظم فى بلاغة الاستعارة فى قوله تعالى : ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ ، وقوله ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ ، ويتحدث عن التشبيه[3] فى مثل : زيد كالأسد ، وكأن زيدا الأسد ، وأن فى المثال الثانى زيادة فى معنى التشبيه ليست فى الأول وهذه الزيادة لم تكن إلا بما توخى فى نظم اللفظ وترتيبه حيث قدم الكاف إلى صدر الكلام وركبت مع « ان » .. كما يتحدث عن ضروب من المجازالعقلى أو المجاز فى الإسناد[4] ، وعن ضروب الكناية فى التشبيه[5] ومدخل النظم فى بلاغتها .

وعبد القاهر يقرر أن الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من مقتضيات النظم ، وعنها يتحدث وبها يكون ، لأنه لايتصور ان يدخل شىء منها فى الكلم وهى أفراد[6] فاذا قلنا فى لفظ « اشتعل » من قوله تعالى : ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ ، انها فى أعلى المرتبة من الفصاحة . لم توجب تلك الفصاحة لها

---

(١) راجع ٤٤ - ٤٧ الدلائل .
(٢) ٦٨ المرجع .
(٣) ١٦٩ المرجع .
(٤) ١٩١ المرجع .
(٥) ١٦٩ المرجع .
(٦) ٢٥٠ المرجع .

وحدها ، ولكن موصولا بها الرأس ، معرفا بالألف واللام .ومقررنا اليهما الشيب منكرا منصوبا[1] ، فليست الفصاحة صفة للفظ « اشتعل » وحده[2] .

وعبد القاهر يؤكد فى « دلائل الإعجاز » ان المزية للكلام انما هى فى نظمه باعتبار ملاءمة معنى اللفظة لمعنى اللفظة التى تليها[3] ، وليس الفضل والمزية فى الكلام أن تنظر فى مجرد معناه[4] ، فالفصاحة والبلاغة عبارة عن خصائص ووجوه تكون معانى الكلام عليها ، وزيادات تحدث فى أصول المعانى كالذى أريتك فيما بين « زيد كالأسد » وكأن زيدا الأسد » ، ولانصيب للألفاظ من حيث هى ألفاظ فيها بوجه من الوجوه[5] فأنفس الكلم بمعزل عن الاختصاص والمزية[6] ، فليس للفظ من حيث هو لفظ حسن « ومزية »[7] ، اذ المزية ليست لمجرد اللفظ ، وانما تقع فى اللفظ مرتبا على المعانى المرتبة فى النفس[8] ، ويجعل عبد القاهر كذلك ذروة المزية والبلاغة . وهى الإعجاز القرآنى ، فى النظم وحده ، لافى شيء آخر[9] . فلا فضل بين الألفاظ ومعناها عند عبد القاهر ، ولا بين الصورة والمحتوى ، ولا بين الشكل والمضمون ، فى النص الأدبى .

والبلاغة عند عبد القاهر فى النظم لافى الكلمة مفردة ولا فى مجرد المعانى ، والباحث عن الإعجاز عليه ان يتتبعه فى النظم وحده .

والنظم عنده هو توخى معانى النحو وأحكامه وذوقه ووجوهه فيما بين معانى الكلم .

---

(١) ٢٥٥ المرجع .
(٢) ٢٥٨ المرجع .
(٣) ٣٣ المرجع .
(٤) ١٧ الدلائل .
(٥) ١٧٠ المرجع ،
(٦) ٢٣٣ المرجع .
(٧) ٢٣٥ المرجع .
(٨) ص٢ أسرار البلاغة شرح محمد رشيد رضا ، ط ١٩٥٩ .
(٩) ٢٤٦ – ٢٥٧ الدلائل .

ولذلك أخذ عبد القاهر فى كتابه « دلائل الإعجاز » يعرض لوجوه تركيب الكلام وفق أحكام النحو ، مستنبطا الفروق بينها ، عارضا لأسرار المزية والحسن والبلاغة فيها .

ففلسفة عبد القاهر البيانية كما شرحهافى « دلائل الإعجاز » تنهض على أساس فكرة النظم[1] ، واذا كان هناك من يذهب إلى أن عبد القاهر لم يكن مخترعا لهذه النظرية ، وانما كان هو الذى بسط فيها القول ، وأقام على أساسها فلسفة كتابه اذ سبقه اليها الواسطى صاحب كتاب « اعجاز القرآن فى نظمه » ، وظهرت هذه الفكرة واضحة فى الصراع الذى أثاره امتزاج الثقافات وتعصب حملة اليونانية لفلسفة اليونان ومنطقهم ، ودفاع حملة العربية عن تراثهم وثقافتهم ومنها الثقافة النحوية[2] — فإن كتاب الواسطى المفقود لا ينهض حجة على ذلك ، وتعصب المثقفين بالثقافات المترجمة للمعانى ولمنطق أرسطو وعدم أهتمامهم بالألفاظ ودفاع علماء العربية عن الأسلوب العربى وتنقصهم لمعانى أرسطو ومنطقه ، كل ذلك لاشبه بينه وبين نظرية النظم عند عبد القاهر ، وعلى أى حال فإننا لا نذهب إلى أن رد البلاغة والإعجاز إلى النظم هو الجديد عند عبد القاهر ولكن الجديد عنده هو شرحه لنظرية النظم هذا الشرح الجديد حقا ، وتطبيقه عليها ، هذه التطبيقات النقدية البيانية الواسعة ، وفرق على أية حال بين أية نظرية فى استنباتها ، وبينها فى قمة ازدهارها .

وعبد القاهر لم يخرج بالنظم عن معانى النحو ، وكانت فكرة النظم عنده تقوم على معرفة هذا النحو وما ينشأ عن الكلمات حين تتغير مواضعها من المعانى المتجددة المختلفة[3] . وكأن ذلك ليس بالجديد الذى نقصد اهتداء عبد القاهر إليه ، فان الجديد عند عبد القاهر هو أنه استخدم معانى النحو وأحكامه استخداما جديدا بيانيا نقديا محضا وإلا لكان فى النحو غنى عن كل ما قرره عبد القاهر والبلاغيون من أحكام بيانية بلاغية ، وذلك مايرده عبد القاهر ويؤكد نفيه له فى كتابه ، كما يقرر فى كل فصل من فصول « الدلائل » أن لا سبيل إلى معرفة الإعجاز إلا النظر فى الكتاب

(١) ١٦٣ البيان العربى ، الطبعة الثالثة .
(٢) ١٦٤ المرجع السابق .
(٣) ١٦٧ المرجع .

الذى وضعناه ، واستقصاء التأمل لما أودعناه[1] ، وانه الطريق إلى البيان والكشف عن الحجة والبرهان[2] ، وأن لا معنى لبقاء المعجزة بالقرآن الا الوصف الذى كان له معجزا ، والطريق إلى العلم به موجود أى ممكن ، ويكرر فى الكتاب أنه يقرر أمورا صعبة على الفهم ، وغير ذلك مما جعل عبد القاهر يشحذ ذهنه فى تقريرها ، وذهن القارىء والسامع فى تقبلها لوجه الجدة فيها ، وأنه المبتكر لها .

ويعتمد عبد القاهر على الذوق الأدبى الخالص اعتمادا كليا فى كل ما قرره من أحكام ، مؤكدا أنه لا يصادف القول فى هذا الباب موقعا من السامع ولا يجد لديه قبولا ، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة وحتى يكون ممن تحدثه نفسه بأن لايومىء إليه من الحسن واللطف أصلا ، وحتى تختلف الحال عليه ، عند تأمل الكلام ، فيجد الأريحية تارة ، ويعرى منها اخرى ، وحتى اذا اعجبته عجب ، واذا نبهته لموضع المزية انتبه[3] .

وعلى أنه ليس لنظرية عبدالقاهر فى النظم من القيمة الرفيعة مالتطبيقاته ، فهناك يظهر ذوقه العربى السليم ، ذلك الذوق الذى لايمكن ان يغنى فى الأدب عنه شيء ، ونظرية عبدالقاهر فى رمزية اللغة ورد المعانى إلى النظم ومنهجه فى نقد النصوص نقدا موضعيا ، ماهى إلا مراحل تنتهى به إلى الذوق الذى يدرك الدقائق ، ويحس بالفروق ووجوه الكلام وأسراره ..وإحساس عبدالقاهر الأدبى السليم سابق دائما لعقله . والحكم على النظم عنده هو النظر فى المعنى منظوما ، والذوق هو الفيصل الأخير فى الحكم على هذه الدقائق . وإلى هذا فطن عبدالقاهر بحسه الأدبى الصادق ، فالذوق عند الجرجانى يتحكم فى نظم المعانى التى نعبر عنها،وتسوق فكرة النظم عبدالقاهر إلى تخطى الأعراف والجملة البسيطة إلى الجملة المركبة التى عنى بها فى الدلائل ، وفى أسرار البلاغة كذلك فى مبحث التشبيه عناية فائقة ونقدها نقداً بينيا أدبيا[4] .

---

(١) مقدمة دلائل الإعجاز .

(٢) مقدمة دلائل الإعجاز .

(٣) ١٩٠ دلائل الإعجاز .

(٤) راجع ١٥٤ – ٠٦١ الفصل القيم الذى كتبه محمد مندور فى كتابه فى الميزان الجديد – الطبعة الثانية – فى الموضوع .

والأدب عند عبد القاهر فن لغوى ، فاخضاع الفكرة أو الإحساس للفظ هو ما يميز الأدب عن غيره من الفنون[1] ، هذه النظرية الصحيحة هى موضع اعتزازنا بتفكير عبد القاهر الذى يبدأ بنظرية فلسفية فى اللغة ، ثم ينتهى إلى الذوق الشخصى الذى هو مرجعنا الأخير فى دراسة الأدب[2] ، وما النقد إلا وضع مستمر للمشكلات البيانية ، فلكل جملة أو بيت مشكلته التى يجب أن نعرف كيف نراها ونصفها ونحكم فيها ، وهذا هو النقد الموضوعى كما رآه الجرجانى[3] .

وكتاب « دلائل الإعجاز » يمكن تلخيصه فى كلمتين لم يفت المؤلف أن يذكرهما فى المقدمة.« النحو » و « النظم » فالنحو عرف واستقر قبل عبد القاهر ، وكذلك معانيه عرفت واستقرت ايضا .

والنحو غايته تصحيح المعانى ، واذا ارادوا صحة التراكيب فلدلالته على المعنى الذى اراده الشاعر أو الذي تتطلبه عبارة الناثر ، أما « النظم فهو عند » عبد القاهر « ليس شيئا آخر » سوى تعليق الكلم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض[4] » . فالنظم فى هذا التعريف كلم أو كلمات ، وتعليق لهذه الكلمات بعضها ببعض ، وبيان لأسباب هذا التعليق ، واذا كان اللغويون قد بحثوا هذه الكلمات ومدلولاتها ، والنحويون قد بحثوا فى تعليق بعضها مع بعض ، وفى أسباب هذا التعليق أحيانا . فهمة « عبد القاهر » البحث فى ضرورة هذه الأسباب ، وفى الانتحاء بها ناحية جمالية يظهر فيها « الذوق » وتثبت لها « المزية » . والذوق والمزية هما الحد الفاصل بين مطلق الكلام ، وبين الكلام الموسوم بالبلاغة . تلك هى القنطرة التى يعبر عليها النحو ليفتح له أبوابا فى البلاغة . وتلك هى الفكرة التى كانت واضحة فى ذهنه ، والتى أشاعها فى كتاب « دلائل الإعجاز » وهى بعينها الفكرة التى قدرها وقررها لبيان إعجاز القرآن ، يرد بها على من تقدمه ، وعلى بعض معاصريه ، ممن تناول هذا الموضوع . فليس القرآن معجزا بالألفاظ فهى فى كل كلام . ويتعجل

---

(١) ١٥٥ — ١٦٠ المرجع نفسه .

(٢) ١٥٧ المرجع .

(٣) ١٦١ المرجع .

(٤) مقدمة دلائل الإعجاز .

فيقول إنه ليس معجزا بالإعراب ، فليس موضع الفاعلية أو المفعولية فى القرآن يغاير موضعها فى كلام آخر ، وليس الإعجاز فى الحقيقة وحدها ، وإلا كانت العبارات المشتملة على الاستعارة خارجة عن حد الإعجاز ، وليس الإعجاز فى التصوير وحده ، وإلا خرجت الحقائق ، وليس الإعجاز فى الترتيب . فهو موجود فى غير القرآن ، وإنما الإعجاز بكل أولئك ، وبشىء زائد لايوجد فى غير القرآن من بين سائر الكلام ، هو المزية الجمالية التى تمنعك أن تغير حرفا عن موضعه ، أو تأتى بكلمة مرادفه لكلمته الأصلية ، والتى إن تجاسرت وتجرأت فى التصرف خرجت عن مزية فيه لا توجد فى غيره ، وخرجت إلى معنى آخر غير المقصود ، وهذا المعنى المقصود لايستفاد من كلمة أو حرف . بل يستفاد من الجملة كلها ومن العبارة فى جملتها .

والإمام « عبد القاهر » لايفهم من النحو الإعراب « وذلك أن العلم بالإعراب مشترك بين العرب كلهم » وليس هو ، مما يستنبط بالفكر ، ويستعان عليه بالروية ، فليس قول أحدهم بأن إعراب الفاعل الرفع ، أو المفعول به النصب ، والمضاف إليه بالجر ، بأعلم من غيره . ولا ذاك المفعول به مما يحتاجون فيه إلى حدة ذهن . وقوة خاطر ، انما الذى تقع الحاجة فيه إلى ذلك ، العلم بما يوجب الفاعلية للشىء (لا العلم بموضع الفاعلية) .. وليس يكون هذا علما بالإعراب ، ولكن بالوصف الموجب للإعراب ، ومن ثم لايجوز لنا أن نعتد فى شأننا هذا بأن يكون المتكلم قد استعمل من اللغتين فى الشىء ما يقال انهما افصحهما ، وبأن يكون قد تحفظ مما تخطىء العامة ، ولا بأن يكون قد استعمل الغريب ، لأن العلم بجميع ذلك لايعدو أن يكون علما باللغة[1] » وهو يقول فى موضع آخر « لسنا فى ذكر تقويم اللسان ، والتحرز من اللحن وزيغ الإعراب .. وإنما نحن فى أمور تدرك بالفكر اللطيفة ، ودقائق يوصل اليها بثاقب الفهم[2] . فاذا قال لك عبدالقاهر بعد هذا البيان » ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو[3] » وجب ان تفهم عنه أنه لايقصد الإعراب ولا اللغة ، وانما يقصد « النحو الجمالى » — إن صح هذا التعبير — وهذا النحو لايهدف إلى موضع الفاعلية أو المفعولية مثلا ،

---

(١) « دلائل الإعجاز » ص ٢٨٣ .

(٢) « دلائل الإعجاز » ص٧٣ .

(٣) « دلائل الإعجاز » ص٦١ .

إنما يهدف إلى موجبهما . وبعيد عن ذهن « عبد القاهر » أن يبدد كل جمال فى سبيل هذا « النظم » المبنى على مقتضيات علم النحو ، كالجمال اللغوى ، والجمال المعنوى ، والجمال التصويرى المبنى على الاستعارة والتشبيه ، إنما يريد منك مع اقراره بهذا الجمال الراجع إلى عدة نواح فى البلاغة ، أن تراعى معه النظم وأن تجعل الفضل له فى النهاية . لأن مزية النظم تفوق كل المزايا الجمالية : فأنت مستطيع اذا تصرفت فى المعنى ان تتصرف فى اللفظ ، وأن تضع لفظة مكان أخرى تبعا لتغير المعنى ، ومن غير تغيير كبير أحيانا اذا استعملت المترادفات أو المتقاربات من ألفاظ اللغة ، وأنت مستطيع أن تستبدل صورة بصورة أخرى حسب ما يتراءى لك فى الحقيقة ، أو فى الوهم والخيال ، ولكنك لست بمستطيع أن تغير من نظم الكلام إذا أوردته فى صورة خاصة ، وفق المعنى الذى تريد وبالألفاظ التى تختار ، لأن تغيير النظم – حتى فى حالة احتفاظ الكلام بمعناه – يقلب بلاغة العبارة رأسا على عقب ، ويخرجها فى مخرج لاتحس معه نفس الإحساس الأول قبل تغييرك النظم.فمثلا إذا نظرت إلى قول « ابن المعتز » :

وانى على اشفاق عينى من العدى   لتجمع منى نظرة ثم أطرق

وجدته جميلا ، وجماله لم يأت من التصوير الاستعارى فى كلمة « تجمع » وانما تم الجمال على هذا الوجه من التأليف الذى سيقت على مقتضاه المعانى : فقد ابتدأ البيت بكلمة « انى » ليتسنى له ادخال « اللام » على خبرها وقد ذكر كلمة « منى » وهى تفيد المروق الذى توحى به كلمة « تجمع » ثم ذكر « ثم » التى تدل على أن « الإطراق » جاء بعد فوات الأوان ، ثم ضم كل هذه الدقائق اطار هذه الجملة الاعتراضية « على اشفاق عينى من العد ى » .

ويمثل عبد القاهر لهذا النظم ببيت آخر لابن المعتز :

سالت عليه شعاب الحى حين دعا   أنصاره بوجـوه كالدنـــانير .

فالجمال التصويرى هنا فى الاستعارة التى فى « سالت » وفى تشبيه الوجوه بالدنانير « وانما تم الحسن وانتهى إلى حيث انتهى ، بما توخى فى وضع الكلام من التقديم والتأخير وتجدها (الاستعارة) قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها . وان

شككت فاعمد إلى « الجارين والظرف » فأزل كلا منهما عن مكانه الذى وضعه الشاعر فقل « سألت شعاب الحى بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره » ثم انظر كيف يكون الحال وكيف يذهب الحسن والحلاوة ، وكيف تعدم أريحيتك التى كانت ، وكيف تذهب النشوة التى كنت تجدها . ![1] . وبهذا التخريج يقف أمام كثير من آى الكتاب مثل ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ و﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ و﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ و﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ ...... ﴾ وكثير غيرها .

وعبد القاهر فى سبيل نظريته فى النظم لايخشى أن يجرأ على « الجاحظ » الذى اتخذه اماما فى دراسته » والذى استهدى بأمثلته فى كثير مما كتب ، فيمدحه اذا كتب وراعى المعنى . وزاوج بين العبارات ، ولم يتطلب لها السجع المتكلف ، ولكنه لايرى كلامه داخلا فى باب « النظم » الذى يقرره ، لأنه من الممكن فى نثر الجاحظ . أو فى بعضه فى الأقل . أن تقدم وتؤخر فى جمله ، من غير اخلال بالمعنى لكثرةما يورده على المعنى الواحد من كثير العبارات ، وبينا يراه فى « أسرار البلاغة » مثلا أعلى للعبارات التوائم والتى تتفق بالوداد على حسب اتفاقها بالميلاد « اذ يراه فى « دلائل الإعجاز » « كمن عمد إلى لآل فخرطها فى سلك لايبغى أكثر من أن يمنعها التفرق ، « وكمن نضد أشياء بعضها على بعض ، لايريد فى نضده ذلك أن تجىء له منه هيئه أو صورة ، بل ليس الا أن تكون مجموعة فى رأى العين » . ثم يعتذر له بأن معناه لايحتاج لأكثر من عطف لفظ على مثله ، وضم الكلام بعضه إلى بعض ، لأن مثل هذا الضم لا يحتاج إلى فكر وروية .[2]

وجمال الكلام يريده عبد القاهر أن يكون منسوبا للنظم وللفظ أيضا ، ولكن ما ينكره هو أن يراك » قد حفت على النظم فتركته ، وطمحت ببصرك إلى اللفظ ، وقدرت فى حسن كان للنظم وللفظ ، أنه للفظ خاصة ، لأن اللفظ هو موضع الاستعارة ، وعنده أن الاستعارة فى المعانى لا فى الألفاظ .

---

(١) دلائل الإعجاز ص٧٤ .

(٢) قارن بين عبارته عن الجاحظ فى « اسرار البلاغة » ص٦ ، ٧ وبين ما قاله فى دلائل الإعجاز ص ٧٢و ٧٣ .

ومن اجل ذلك كله اهتم عبد القاهر بالنحو لا لذاته ولا لإعرابه ، ولا لتحديد أنواعه وكلماته ، بل لوضعه وترتيبه من تقديم وتأخير ، وتمييز وتوكيد اذا عرفت ما يوجب هذه العلل ولم تقتصر على مواضعها فحسب ، ومن هنا تنقلب هذه العلل « نكتا بلاغية » تستحق أن تدرس فى البلاغة ، بل تستحق أن تدرس على أنها بلاغة ، وتتخذ لها مكانا خاصا بها لتحسب فى باب العلمية وتدون تحت اسم « علم المعانى » وهذا العلم الجديد الذى وضعه « عبد القاهر » بلاغى لانحوى ، وأنه وإن كان فى أصله نحويا فلأن شرط البلاغة صحة التراكيب التى تترتب عليها صحة المعنى ، وهنا يتلاقى النحاة مع المناطقة ، ويتلاقى « عبد القاهر » مع « ارسطو » الذى دون للنحو وهو يكتب فى بلاغة الخطابة وبلاغة الشعر[1] . وليس الأديب حرا فى التقديم والتأخير ، مثلا ، يمنعه تارة ، ويسوغه تارة اخرى ، يجعله مفيدا أحيانا ، ويعريه عن الفائدة أحيانا أخرى ، ذلك اتجاه لايرضى رجلا منهجيا علميا موضوعيا كعبد القاهر الجرجانى ، ولايتردد فى اعلان خطئه : « واعلم أن من الخطأ أن يقسم الأمر فى تقديم الشيء وتأخيره قسمين ، فيجعل مفيدا فى بعض الكلام ، وغير مفيد فى بعض ، وأن يعلل تارة بالعناية ، واخرى بأنه توسعة على الشاعر والكاتب ، حتى تطرد لهذا قوافيه ، ولذلك سجعه ، ذلك لان من البعيد أن يكون فى جملة « النظم » ما يدل تارة ولا يدل اخرى » ![2] .

فاذا أردت الاستفهام بالهمزة وأردت الفعل فقدمه وقل : اكتب ؟ لأنك تريد أن تعلم حصول الكتابة ، فاذا علمت حصولها وشككت فى فاعلها فقل : أأنت كتبت ؟ وللهمزة مذاهب أخرى فى الاستعمال لابد من معرفتها لتحديد الفكرة التى تريدها ، كما أن للاستفهام معنى يفهم من مفهوم الجملة لا من منطوقها ، وهذه الدلالة بالمفهوم عزيزة جدا لدى البلاغيين ولدى الأدب الذى لا يرضى السفور ، ويرى جماله فى الحجاب فيما يرى « عبد القاهر » فى الأقل : فإذا قلت أأنت تمنعنى حقى ؟ أو أأنت تأخذ على يدى ؟ كان للجملة زيادة على ما تريد من الاستفهام

---

(١) كتب ارسطو فصلا خاصا بالنحو تكلم فيه عن اقسام الكلمة وعن الفروق بين اقسامها وعن المقاطع والحروف والأصوات وغيرها من المسائل التى رآها ضرورية فى البلاغة،راجع الفقرة الثالثة من الفصل العشرين من كتاب الشعر .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٧٢ .

معنى آخر وهو أنك « أقل من أن تمنعنى » و« إن غيرك يستطيع الأخذ على يدى لا أنت » واذا قلت « أأنت تسألنى » كان معنى ذلك « أنا أكبر من أن أسأل أمامك » ، وكذلك اذا قلت « أأنا أمنع الناس حقوقهم » ؟ كان معناه « أنا أكرم من هذا ! » واذن تنقل الجملة من الاستفهام النحوى إلى التوبيخ ، ومن التوبيخ إلى التعجب ، وهذا التنقل من انشاء إلى انشاء أو من خبر إلى انشاء ، هو كل ما تريده البلاغة . أو إذا تركت الاستفهام وقلبت فى باب آخر وجدت « عبد القاهر » يسير فى سبيل واحدة رسمها لنفسه والتزمها . خذ باب « النفى » مثلا ، قرين الاستفهام فى اللغة العربية وفى جميع اللغات الحية ، تجد الأمر على ماذكر ، من أن النحو فيما يريده منه « عبد القاهر » لا يقتصر على دلالة المنطوق ومايفهم من ظاهر التركيب : فاذا قلت لمدعى الإحسان مثلا « انت لاتحسن هذا ! » كانت الجملة أبلغ من قولك « لاتحسن هذا » فقط ، وحتى من قولك « لاتحسن أنت » فالأولى تتوجه مباشرة إلى صلفه وادعائه . ومثل هذا قول الشاعر :

مثلك يثنى المزن عن صوبه ويسترد الدمع من غربه

فليس الغرض الإخبار وحده ، انما الغرض التعجب ممن كانت هذه مكانته،وفيه زيادة على التعجب ، أن غيره لايتصف بهذه الصفات ! . وهكذا يدق « عبد القاهر » فى تحليل النحو ، وفى اعتصار ما فى تركيبه من المعانى البلاغية ، لتحديد « الفكرة » التى هى احدى عناصر كل أسلوب أدبى .

فما باب القصر الا لتحديد المعنى ، وانصبابه جملة فى المسند ، أو فى المسند إليه ، أو فى الصفة ، أو فى الموصوف ،وما باب « الفصل والوصل » الذى عرفت به البلاغة ، فقيل هى « معرفة الفصل والوصل » إلا البحث فى أن الجملة تمت بفكرتها ، أو أن فى الجملة الثانية ما يمكن أن يتم الفكرة الأولى ، ومن هنا كانت عباراتهم الاصطلاحية فى « كمال الاتصال » و « كمال الانقطاع » وشبههما .

على ان « عبد القاهر » مجَّد النحو ، فى تأليف خاص وجعل له هذه المنزلة فى البيان والبلاغة ، بعد أن كان مقصورا على التراكيب وصحة الإعراب فى نظر كثير من النحويين فى الأقل .

وقد كان « ارسطو » يقول : « إن النحو صلب البلاغة : ويقول لخطباء اليونان : « تكلموا باليونانية » ..

وقال « عبد القاهر » للبلاغيين : لاتحتقروا النحو ولا تزهدوا فيه لأن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذى يفتحها ، وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها ، وأنه المعيار الذى يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه والمقياس الذى لايعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه ، ولا ينكر ذلك إلا من ينكر حسه ، والا من غالط فى حقائق نفسه[1] .

والنظم ليس هو اللفظ ، وليس هو المعنى ، ولعبد القاهر موقف من قضية اللفظ والمعنى ، فاذا كان « ابو هلال العسكرى » قد فصل بين اللفظ والمعنى ، واستجاد العبارات الأدبية للفظها ، بعد ان بين ان المعانى موجودة ، وانها لكل الناس يعرفها العربى وغير العربى .

فان « عبد القاهر » لا يرضى عن هذا المذهب ولايستسيغه. ونلاحظ ابتداء أن انصار اللفظ وانصار العبارة هم من العرب أو من المتعصبين للعرب ، وأن أنصار المعنى هم من غير العرب ، فالآمدى والجرجانى يريان أن المعنى لو ترجم إلى أى لغة من اللغات ما فقد شيئا من جودته . و « عبد القاهر » يرى أن « الاستعارة المفيدة « تترجم بلفظها ، ويجب أن تنقل كما هى فى لغتها الأصلية ، لأن الاستعارة فى نظره جارية فى المعانى لا فى الألفاظ ، والصورة التى جاءت بها الاستعارة لم يمكن تصويرها إلا بعد ما سارت المعانى من المشبه به إلى المشبه . وأما الاستعارة غير المفيدة فتترجم بمعناها . أكبر الظن أن للعصبية تأثير فى هذا الموقف بين اللفظين وبين المعنيين فالأعاجم يعولون على المعانى العقلية وإن لم تقصر بهم عبارتهم بعد أن حذقوا العربية ، والعرب مندفعون بطبيعتهم إلى العبارة وأن لم تقصر بهم المعانى بعد ثقافتهم وفلسفتها . هذه الفكرة العابر لاتهم فى موضوعنا بقدر ما يهم فيه أن تقف بين اللفظ والمعنى موقف الحكم المحايد لترى حقيقة الخلاف ، أهو جوهرى بالصورة التى يصورها « عبد القاهر » ؟ أم هو لفظى يرجع فى آخر الأمر إلى شىء من التفاهم بين الطرفين ؟ .

---

(١) دلائل الإعجاز صفحة ٢٣و ٢٤ .

واللفظيون لايرون الشأن للمعانى « التى يعرفها العربى والعجمى والقروى والبدوى » وإنما الشأن فى جودة اللفظ وصفاته وحسنه وبهائه ، ونزاهته ونقائه ، وكثرة طلاوته ومائه . « ولا يطلبون من المعنى إلا الصواب وبعده عن الاستحالة[1] .

واللفظيون لايرون أن الفصاحة هى التلاؤم اللفظى ، وتعديل مزاج الحروف ، حتى لايتلاقى فى النطق حروف تثقل على اللسان كهذا البيت الذىدونه الجاحظ :

وقبر حرب بمكان قفر ... وليس قرب قبر حرب قبر

والذى قال فيه . مستهزئا إنه من لغة الجن ، والذى اتخذ منه أحجية فلا يستطيع أن ينطق به فصيح عدة مرات من غير أن يخطىء ، ولقد نقد الجاحظ أبيات ابن يسير :

لأذيل الآمال بعدك إنى ... بعدها بالآمال جد بخيل
كم لها وقفة بباب كريم ... رجعت من نداه بالتعطيل
لم يضرها والحمد لله شيء ... وانثنت نحو عرف نفس ذهول

وبخاصة البيت الأخير الذى قال فيه « انك تجد بعض ألفاظه تبرا من بعض[2] ، لاجتماع الزاى والسين والثاء والذال فى جملة واحدة .

واللفظيون لايرون أننا إذا راعينا المعانى فقط صعب علينا « النقد الأدبى وصعب علينا مراعاة التعادل بين الحروف والألفاظ ، فعند اتفاق المعنى نعمد حتما إلى شيء من الموضوعية فى المقابلة بين ألفاظ الشاعرين ، وهذه الألفاظ كما رأينا عند « عبد القاهر الجرجانى » ترق وتتحضر وتتخير .

فاذا راعينا المعانى وحدها فقد النقد الأدبى جزءا مهما من موضوعه ، واقتصر على المعانى ، وهى نفسية من الصعب تحديدها ، وايجاد مقاييس خاصة بها ، كهذه المقاييس التى تخضع لها الألفاظ .

---

(١) الصناعتين صفحة ٢٤ . (٢٤ بلاغة ارسطو) .
(٢) البيان والتبيين صفحة ٢٧ ج١ « دلائل الإعجاز صفحة ٤٤و ٤٥ » .

ويرى اللفظيون أيضا : أنا أبواباً كثيرة من أبواب الأداء الأدبى ترجع إلى اللفظ ، فالوزن والسجع لاوجود لهما إلا بالألفاظ المشتركة فى المبنى المختلف المعنى ، والترصيع والتجنيس يحتاجان إلى الألفاظ الواحدة ، أو المؤتلفة فى وقعها على السمع مع اختلاف معانيها . فهناك أبواب بلاغية وأدبية اذا انتزعنا منها الألفاظ فقد انتزعنا الحجر الذى تستند إليه . بل أضعنا سبب وجودها !

واذا كانت الألفاظ لا مزية لها ، وكانت المزية للمعنى وحده ، فلم قال النقاد « لفظة فصيحة » ولم يقولوا « معنى فصيح » و « كلام فصيح » ؟ ولم قالوا « معنى لطيف » و « لفظ شريف » و « لفظ متمكن » و « لفظ قلق » ؟ ولم امتدح الناس الشعراء باللفظ ؟ بل لم امتدح الشعراء أنفسهم باللفظ ؟ فيقول البحترى مثلا :

بمنقوشة نقش الدنانير ينتقى لها اللفظ مختارا كما ينتقى التبر

وللبحترى :

حجج تخرس الألد بألفا ظ فرادى كالجوهر المعدود
ومعانى لو فصلتها القوافى هجنت شعر « جرول » و« لبيد »
حزن مستعمل الكلام اختيارا وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأرك ن غاية المراد البعيد
كالعذارى غدون فى الحلل الصف ر اذا رحن فى الخطوط السود

واذا كان الأمر كما قلنا فلم لايكون للفظ مزيته ؟ والألفاظ جواهر فى نظر الشعراء ، والمعانى لاقيمة لها إلا بحيازة اللفظ السائر المطاوع ، وأوضح المعانى يقع فى ظلمة التعقيد اللفظى ، والمعنى البعيد يصل إلى غايته على مركب اللفظ الغريب ، وأخيرا اذا كانت المعانى عذارى فلم لاتلبس انيق الملبس من الألفاظ ؟ ! على أنه لم يغب عن « عبد القاهر » حجة واحدة من هذه الحجج « ونصب نفسه لدحضها والرد عليها ، وارجاعها إلى ما يريد من نصرة المعنى ، فهويرى أن الشأن كله للمعانى ، وأن الألفاظ تقع مرتبه على الورق ، واذا كانت معانى هذه الألفاظ منظمة فى ذهن الخطيب ، مرتبة فى ذهن الكاتب وأن اللسان يجرى بها مرتبة إذا كانت معانى هذه الألفاظ منظمة فاذا رتبت المعانى ترتيبها الطبيعى . حصلت على صورة

خاصة فى التأليف يرجع الحسن فيها إلى ترتيب المعانى . لا إلى انتقاء الألفاظ : « فاذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرا أو يستجيد نثرا ، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول : حلو رشيق ، وحسن أنيق وعذب سائغ ، وخلوب رائع ، فأعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف ، وإلى ظاهر الوضع اللغوى ، بل إلى أمر يقع من المرء فى فؤاده ، وفضل يقتدحه العقل من زناده . وأما رجوع الاستحسان إلى اللفظ من غير شرك من المعنى فيه ، وكونه من أسبابه ودواعيه فلا يكاد يعدو نمطا واحدا ، وهو أن يكون اللفظ مما يتعارف الناس فى استعمالهم ، ويتداولونه فى زمانهم ، ولا يكون وحشيا غريبا أو عاميا سخيفا[1] » . وهو نص ثرى كل الثراء فى دلالاته :

لان الجمال الأدبى فى نظره لا يرجع إلى جرس الحروف وطنينها . وانما يرجع إلى المعنى والسياق ، وهذا المعنى إما وجدانى« يقع من المرء فى فؤاده » ، وإما عقلى » يقتدحه العقل من زناده » والوجدان والعقل يتحركان بالمعنى فى نفس الأديب ، ويمليان ما يقتضيه هذا المعنى من الألفاظ . ولأن الجمال الأدبى لا يرجع إلى ظاهر الوضع اللغوى ، حتى يكون الأدب فى الكلمات اللغوية ، وفى انتقائها وكثرتها ، فالأمر كما قال « الجاحظ » اذا كثر الأدب وفلت القريحة كان وجود الأدب شرا من عدمه » .

وكما أن الأدب لايكون فى الألفاظ اللغوية وكبكبتها.لا يكون فى الوقوف به عند ظواهر الأوضاع اللغوية ، والا بطلت الصور فى الأدب من استعارة وتشبيه فما الاستعارة والمجاز إلا خروج على الأوضاع اللغوية بمناسبة ومقتضى يلائمان ما بين المعانى المنقولة منها الألفاظ ، إلى المعانى المنقوله اليها .

اما عناية الأدباء بالألفاظ ، واضفاؤهم عليها وحدها صفات خاصة من الحسن والرشاقة فشبهة نترك لعبد القاهر شرحها كما أراد : « وسبب دخول الشبهة على من دخلت عليه ، أنه لما رأى المعانى لاتتجلى للسامع إلا من الألفاظ ، وكان لا يوقف على الأمور التى بتوخيها يكون النظم إلا بأن ينظر إلى الألفاظ مرتبة على الانحاء التى يوجبها ترتيب المعانى فى النفس ، وجرت العادة بأن تكون المعاملة مع الألفاظ .

(١) اسرار البلاغة صفحة ٢ ، ٣ ، ١٩٢٥ .

فيقال : قد نظم ألفاظا فأحسن نظمها ، وألف كلما فأجاد تأليفها ، جعل الألفاظ الأصل فى النظم وجعله يتوخى فيها أنفسها ، وترك أن يفكر فى الذى بيناه[1] » .

وعبد القاهر يعترف بأن فى الأمر شبهة ، ولا ينكر قيمة الألفاظ جملة ، إنما يريد أن يحدد مكانتها فى النظم . ويقر كل القرار من أن تكون المزية البلاغية فى اللفظ وحده ، أو فى اللفظ من حيث هو حروف وجرس وصوت ، وإلا بطل الإعجاز فى القرآن اذا أتى المعارض بألفاظ تشبه ألفاظ القرآن عن طريق المحاكاة وهو لا ينكر كلام القدماء إذا قسموا الفضيلة البلاغية بين اللفظ والمعنى فقالوا » معنى لطيف ولفظ شريف » لأنهم يريدون ترتيب الألفاظ حسب ترتيب الفكرة ، ومع التجوز حذفوا « الترتيب » فقالوا: « اللفظ والفكرة » أو « اللفظ والمعنى » فاذا قالوا بعد ذلك « لفظ متمكن » أرادوا أن معناه غير ملائم لما يليه ، ولما سبقه وإذا قالوا لفظ قلق ناب ، فهو غير مطمئن فى موضعه[2] .

أما قول أنصار اللفظ إن أبوابا كثيرة من أبواب الأداء الأدبى ترجع مباشرة إلى اللفظ كالسجع والترصيع والطباق والتجنيس ، فقول يتكفل « عبد القاهر » بالرد عليه فى كتابه « أسرار البلاغة » ويعرضه فى جدل المقتنع ، بل فى جدل الرجل الدينى الذى ينافح عن غاية بعيدة هى إعجاز القرآن . فكل هذه المحسنات « لا يرجع الحسن والقبح فيها إلى اللفظ والجرس ، بل إلى ما يناجى العقل والنفس » فالتجنيس مثلا لايستحسن إلا إذا كان موقع اللفظين من العقل موقعا حميدا ، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدا ، فاذا استضعف النقاد واستضعف معهم « عبد القاهر » تجنيس أبى تمام فى قوله :

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت   فيه الظنون أمذهب أم مذهب

واذا استحسن عبد القاهر التجنيس فى قول القائل « حتى نجا من جوفه وما نجا »[3] وفى قول أبى الفتح البستى :

---

(١) دلائل الإعجاز صفحة ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

(٢) دلائل الإعجاز صفحة ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

(٣) فى طبعة الشيخ رشيد رضا (خوفه) بدلا (جوفه) .
أسرار البلاغة صفحة ٤ هامش ٣ .

ناظراه فيما جرى « ناظراه »   أو دعانى أمت بما أودعــانى

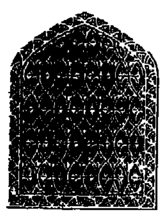
فليس الاستضعاف والاستحسان راجعين إلى اللفظ . بل لأنك رأيت الفائدة ضعفت عن الأول وقويت فى الثانى ورأيتك لم يزدك بمذهب ومذهب[1] على أن اسمعك حروفا مكررة ، تروم لها فائدة فلا تعدها إلا مجهولة منكرة ، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة ، كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها ، فبهذه السريرة صار التجنيس من حلى الشعر ، ومذكورا فى اقسام البديع[2] » .

وهكذا يدافع « عبد القاهر عن شبه اللفظيين بمثل هذا الدفاع .

***

(١) لانوافق عبد القاهر وغيره من نقاد هذا البيت الذى أحسن فيه (أبو تمام) الزيادة ووناها ذلك لانه لما قال : (ذهبت بمذهبه أن السماحة) خطر له مذهب السماحة .

(٢) عبد القاهر (أسرار البلاغة) صفحه ٣ .



المراجع

(١) القرآن الكريم .
(٢) نقد النثر – د. طه حسين – طبعة ١٩٣٩ .
(٣) المدارس النقدية الحديثة – م. هـ. ابرامز – ترجمة د. عبد الله معتصم الدباغ .
(٤) الأسلوب والأسلوبية – د. أحمد درويش .
(٥) الخطابة لأرسطو – د. محمد غنيمى هلال .
(٦) علم الأسلوب – د. صلاح فضل .
(٧) الأسلوبية والأسلوب – د. عبد السلامالمسدى .
(٨) التفسير الإعلامى للأدب – د. عبد العزيز شرف .
(٩) المدخل إلى وسائل الإعلام – د. عبد العزيز شرف .
(١٠) معجم لمصطلحات النقد الحيث – حمادى صمود .
(١١) مشكلة البنية – د. زكريا إبراهيم .
(١٢) الصناعتين – أبو هلال العسكرى .
(١٣) المثل السائر .
(١٤) ضحى الإسلام – أحمد أمين .
(١٥) البلاغة العربية فى دور نشأتها – د. سيد نوفل – طبعة ١٩٤٨ .
(١٦) النثر الفنى .
(١٧) تاريخ البلاغة العربية – أ. أحمد شعراوى .
(١٨) مقدمة ابن خلدون .
(١٩) بحوث وآراء فى البلاغة – أ. أحمد المراغى .
(٢٠) النقد التحليلى عند عبد القاهر – د. الصاوى – طبعة ١٩٧٩ .
(٢١) الأسلوب للشايب – طبعة ١٩٦٦ .
(٢٢) دفاع عن البلاغة – أ. أحمد حسن الزيات – طبعة ١٩٤٥ .

(٢٣) الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث للسحرتى – طبعة ١٩٤٨ .
(٢٤) فن الشعر لأرسطو .
(٢٥) بيان إعجاز القرآن – أبو سليمان الخطابى .
(٢٦) النكت فى إعجاز القرآن – أبو الحسن الرمانى .
(٢٧) إعجاز القرآن – أبو بكر الباقلانى .
(٢٨) كتاب التمهيد – أبو بكر الباقلانى .
(٢٩) نكت الانتصار لنقل القرآن – أبو بكر الباقلانى .
(٣٠) المغنى – للقاضى عبد الجبار .
(٣١) أصول البلاغة للبحرانى – تحقيق د. عبد القادر حسين .
(٣٢) دلائل الإعجاز . عبد القاهر.
(٣٣) الموازنة للآمدى .
(٣٤) البيان والتبيين للجاحظ .
(٣٥) النحو والنحاة .
(٣٦) أسرار التركيب البلاغى – د. سيد عبد الفتاح حجاب .
(٣٧) المطول بحاشية السيد .
(٣٨) الأدب وفنونه – د. عز الدين إسماعيل .
(٣٩) فى الميزان الجديد – د. محمد مندور .
(٤٠) الإمتاع والمؤانسة – للتوحيدى .
(٤١) العمدة .
(٤٢) بغية الوعاة – للسيوطى .
(٤٣) شذرات الذهب .
(٤٤) فوات الوفيات .
(٤٥) نزهة الألباب – لابن الأنبارى .
(٤٦) روضة الجنات .
(٤٧) دمية القصر .

* * *

الفهرس

الصفحة	الموضوع

* * *

رقم الإيداع : ١٩٩١/٩٧٢٤
الترقم الدولى : ٩ـ٦٩ـ٥٠٨٣ـ٩٧٧

تجهيزات أوفست

جهاد

٢٢ج شارع سمان ـ الزيتون ـ القاهرة

طبع بالمطبعة الفنية ت ٣٩١١٨٦٢

هـذا الكتـــاب

سفر جديد فى البلاغة العربية قام على تأليفه ثلاثة من المتخصصين فى هذا الفن ، فجاء على خير ما يراد منه : سلاسة فى الأسلوب ، وسبك للعبارة ، ووضوح فى الرؤية ، كل ذلك نتيجة ثقافة واسعة فى هذا الفن ، وطريق معبدة من المعرفة التى يتمتع بها المؤلفون الثلاثة .

والكتاب - كما هو واضح من عنوانه - من الكتب المتخصصة التى تسد نقصًا فى المكتبة العربية إضافة وإيضاحًا ويلقى شعاعًا من التعريف بهذا العلم الذى قد تخفى دقائقه على بعض المثقفين أحيانًا ، ويضم إجابات كانت مستعصية على الدارسين المهتمين بهذا اللون فى اللغة العربية .

الناشر

الدار المصرية اللبنانية
طبـاعـة • نشـــر • تـــوزيـــع
١٦ شارع عبدالخالق ثروت - تليفون ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣ - فاكس: ٣٩٠٩٦١٨ - برقياً: دار شادو - ص.ب: ٢٠٢٢ - القاهرة
AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION
16 ABD EL KHALEK SARWAT St. P.O.Box 2022-Cairo-Egypt PHONE: 3936743-3923525 FAX: 3909618 CABLE DARSHADO